

# بقول العلماء

الدكتور جورج فورد

# نور العالم

بقلم جورج فورد

٩	الكوكب الأول: أصل يسوع المسيح السماوي
١٠	الكوكب الثاني: النبؤات المختصة بالمسيح
١٠	الكوكب الثالث: سلطان يسوع المسيح بالقول والفعل
١٠	الكوكب الرابع: الإكرام
١١	الكوكب الخامس: حضوره الدائم
١١	الكوكب السادس: موته وقيامته
١٢	الكوكب السابع: طبيعته الإلهية
١٤	مسابقة كتاب: «نور العالم»

# نور العالم

يعلم كل عاقل أن الخير العام، وشروط العمران، وأصول التمدن، ومبادئ الدين الصحيحة، تقضي جميعاً بالانتباه إلى ما يجمع بين النحل المختلفة مع ما يجوز من التساهل في ما يفصل بينها.

فتوحيد الله هو أعظم وأفضل جامع بين الفرق الثلاث التي أطلق عليها اسم «أهل الكتاب». لأن اليهودي والمسيحي يجاهران به كالمسلم. ولا يرضيان بتاتا أن يعد المسلم أشد تمسكاً منهما بهذه الحقيقة الجوهرية الأساسية التي لا بد من أن تغلب مع مرور الزمن على كل الآراء الفاسدة القائلة بالشرك بالله.

والمسيحي المخلص مع أنه لا يشارك المسلم في الفقرة الثانية من عبارة الشهادة التي هي (أنا محمد رسول الله) يضاعف (لهذا السبب عينه) اجتهاده بأن يشترك في الفقرة الأولى من تلك العبارة فيجاهر بكل قواه بأن «لا إله إلا الله» ويفتخر بأن يحبذ كل حركة إصلاحية حقيقية يقصد بها قطع دابر الشرك بالله نظير الحركة التي حدثت في زمن نشوء العقيدة الإسلامية.

أما الجامع الثاني العظيم بين فرق أهل الكتاب فإنه لم يستوف إلى الآن حقوقه من الأهمية والانتباه. وهو شخص يسوع المسيح عيسى ابن مريم وقدوته وتعاليمه. فلذلك قصدنا البحث بإخلاص تام وصراحة جليلة في أمر هذا الجامع الجليل مع المسلم الأمين الغيور في مذهبه.

ومن المقرر أنه لا يجلو الحقائق غير التمهيد، كما أن وقوف المتباحثين عليها بعد تمحيصها يولد فيهم اتفاقاً جميلاً هو الضالة المنشودة في هذا العصر.

ويا ليت نتيجة هذا البحث تكون تخفيف النفور الذي يشعر به المسلم المتدين تجاه بعض القضايا المسيحية لا بل أن يزول تماماً من قلبه بواسطة إيضاح تلك القضايا. ونخص منها ما يتعلق بشخص يسوع المسيح الذي قال يوماً لمحاوريه من رؤساء اليهود:

«أنا هو نور العالم»

والقول أن هذا الشخص هو جامع عظيم ثان بين فرق أهل الكتاب مبني على اتفاقها في إكرامه اتفاقاً لم يحصل لغيره من الأنبياء في كل التاريخ البشري.

وهذه الفرق تجمع ليس أقل من نصف سكان العالم، وهو النصف السابق كثيراً في كل أبواب الرقي.

من المعلوم أن اليهود يعتبرون المسيح (الذي ينتظرون مجيئه بفارغ الصبر) ذا مقام يفوق كثيراً مقام أعظم الأنبياء. وذلك ظاهر في كثير من آيات التوراة عندهم التي نختار منها هذه الآية:

«لأنه يؤلّد لنا ولدٌ ونُعطي ابناً، وتكونُ الرِّياسَةُ على كَنَفِهِ، ويُدعى اسْمُهُ عَجِيباً، مُشِيرًا، إِلَهًا قَدِيرًا، أَبًا أَبَدِيًّا، رَئِيسَ السَّلام. لِنُثْمِرَ رِياسَتِهِ، وَلِلسَّلامِ لا نَهاية... مِنْ الآنَ إلى الأَبَدِ» (إشعيا ٩: ٦-٧).

والمسيحيون يجلّون يسوع المسيح إجلالاً ليس ممتازاً فقط بل متفرداً ورفيعاً فوق إجلالهم أعظم الرسل والأنبياء. فإنهم يحسبونه ذات المسيح الموعود به قديماً لليهود في التوراة. وفوق ذلك يحسبونه ابن الله الوحيد. وهذا ظاهر في كثير من آيات الإنجيل التي لقوتها وغرابتها يستصعبها جداً كل من ليس مسيحياً. نخص منها ما يأتي:

«في الْبَدْءِ كانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلمَةُ كانَ عِنْدَ اللَّهِ، وَكانَ الْكَلِمَةُ اللَّهِ. هَذا كانَ في الْبَدْءِ عِنْدَ اللَّهِ. كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كانَ. فِيهِ كانتِ الْحَياءُ، وَالْحَياءُ كانتِ نُورَ النَّاسِ» (يوحنا ١: ١-٤).

«كانَ النُّورُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يُبَيِّرُ كُلَّ إِنسانٍ آتِياً إلى الْعالَمِ» (يوحنا ١: ٩).

«وَالْكَلمَةُ صارَ جَسَداً وَحَلَ بَيْنَنا، وَرَأَينا مَجْدَهُ، مَجْداً كَمَا لَوْحِيدٍ مِنَ الْآبِ، مَمْلُوءاً نِعْمةً وَحَقًّا» (يوحنا ١: ١٤).

«إِذْ أَقامَهُ مِنَ الْأَمْواتِ، وَأَجْلَسَهُ عَنْ يَمِينِهِ في السَّماءِ وَاتِّياتِ، فَوْقَ كُلِّ رِياسَةٍ وَسُلطانٍ وَقُوَّةٍ وَسِيادةٍ، وَكُلِّ اسْمٍ يُسَمَّى لَيْسَ في هَذا الدَّهْرِ فَقَطْ بَلْ في الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضاً، وَأَخَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وَإِياهُ جَعَلَ رَاساً فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ» (أفسس ١: ٢٠-٢٢).

«لِكنِّي تَجَنَّبْتُ بِاسْمِ يَسُوعَ كُلَّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ في السَّماءِ وَمَنْ على الْأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَيعترفُ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبُّ جَدِّ اللَّهِ الْآبِ» (فيلبي ٢: ١٠ و١١).

ثم عندما نفتح كتاب المسلمين نجد أن آياته المختصة بعيسى ابن مريم تحله محلاً أرفع من سائر الأنبياء بعد محمد بنبيهم الخاص. وهذا بعضها (٣) (٣) (نتبع في اقتباس الآيات القرآنية المؤلفات حديثاً. فننتقي من كل آية العبارة التي تفيد المعنى المطلوب دون ذكر الآية بتمامها. وذلك بغية الوضوح مع الاختصار).

«إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ» (سورة النساء ١٧١: ٤).

«إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَتِهِ مِنْهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهاً في الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» (سورة آل عمران ٤٥: ٣).

«ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ» (سورة مريم ٣٤: ١٩).

«وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا في قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً» (سورة الحديد ٥٧: ٢٧).

«وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَآيَدْنَاهُ بَرُوحِ الْقُدُسِ» (سورة البقرة ٢: ٢٥٣).

«إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ» (سورة المائدة ٥: ١١٠).

ويتبع هذه الآيات أدلة أخرى تؤيد مقام المسيح عند المسلمين نذكر منها من الحديث النبوي ما ورد في كتاب مشكاة المصابيح الموعول عليه عند مسلمي الهند خصوصاً. هذا يصور المؤمنين يلجأون يوم الدين إلى الانبياء الواحد بعد الآخر بدءاً من آدم طالين شفاعتهم. فيجيبهم كل نبي بدوره مستغفياً لعدم أهليته بحجة ما صدر منه من الزلات المذكورة في التاريخ الإسرائيلي لكنه يوجههم إلى نبي آخر بعده. فحين تأتون إلى موسى يعترف بقصوره كسابقه ويقول: «اذهبوا إلى عيسى الذي هو عبد الله ورسول الله وروح الله وكلمة الله». وأما عيسى فلا يجيبهم معتذراً لأنه لم ينسب إليه أي زلة بل يقول لهم: «اذهبوا إلى محمد بن عبد الله الذي قد غفر له الله أولاً وأخيراً» (مشكاة المصابيح ٢٣: ١٢). والمذهب الإسلامي يعترف لعيسى ابن مريم

وحده بالولادة من عذراء والانتقال من الدنيا بدون فساد الموت الجسدي في القبر. فليس له في الدنيا ضريح.

فهذا الاتفاق العجيب بين فرق «أهل الكتاب» على تكريم ممتاز لشخص المسيح هو رابط مهم جداً لا يفوقه إلا رابط توحيد الله. ومن دأبه أن يجمع بينها حباً واحتراماً.

فما بقي إلا أن ننقع اليهود بأن هذا هو مسيحهم الحقيقي، وأن يسلم المسلمون بأن الإنجيل الحاوي أخبار عيسى ابن مريم وتعاليمه هو ذات الإنجيل المصدق والمكرم في القرآن وليتمهد السبيل إلى الارتباط المتين بين هذه الفرق الثلاث المهمة التي يبدها زمام العالم.

أما الارتباط فيستلزم التفاهم أولاً. فمن الوجه الواحد يصبح المسلمون قريين إلى التفاهم مع النصارى بالنظر إلى مقام المسيح عندهم. ومن الوجه الآخر يصبح اليهود قريين بسبب ادغام المسيحيين تورات اليهود بحروفها بالإنجيل في كتابهم المقدس. أما التفاهم فيستلزم إزالة الأوهام من أفكار كل فريق في ما يتعلق بما يعتقد الفريق الآخر. وهذا يوجب على كل فريق أن يسهل للآخر مطالعة كتابه الخاص. لأنه ما دام الاحتكار في الضروريات المادية يُدْمَ ويُنظر إليه في البلدان الراقية كجريمة فكم بالحري يكون الاحتكار ذمياً في الأمور الجوهرية الدينية التي يتوقف عليها الرضى الإلهي والخلاص والهلاك الأبداني. فالمسلم المحب لبني جنسه لا يرضى باحتكار كهذا بل يطلب تعميم الخير الديني الحاصل هو عليه. ثم يرغب أيضاً في أن يحصل على نصيبه من الخير الجديد الذي قد يأتيه من أبناء غير ملته.

فباعتبار الذي قال: «أنا هو نور العالم» صادقاً يتوجب علينا أن ننظر في قوله هذا بنية سليمة وإيمعان نظر لنعلم ماذا ينتج عنه. أفلا ينتج عنه أن الذي هو حقاً نور العالم هو نور العنصر الإسلامي أيضاً المحتوي على أكثر من سبع سكان العالم.

إن المسيحي الفهم يحفل كثيراً بالإكرام المقدم في القرآن الشريف لشخص المسيح عيسى ابن مريم وللكتاب المقدس أي التوراة والإنجيل وللنصارى المعترف بإكرامهم في القرآن لكونهم من أهل الكتاب المشرفين. ويتنسم من هذا الإكرام تسهلاً ذا بال للتوفيق بينه وبين المسلم.

قد سبق ذكر بعض الآيات القرآنية المختصة بشخص المسيح وأما المختصة بالنصارى فهذا بعضها:

«وَلَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ

وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» (سورة المائدة ٨٢:٥).

«إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (سورة آل عمران ٥٥:٣).

«وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (سورة الأنبياء ٢١:٧).

«وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً» (سورة الحديد ٥٧:٢٧).

وفوق هذا كله يعرف كل مستنير ويعترف أن الأمانة للحق هي فوق كل أمانة سواها فلا يرضى أن يضحي بالحق في طريق المدافعة عن جماعته في خطاهم.

بناء عليه فالإنصاف يقضي على النصارى بالانتباه ليس فقط إلى آيات المدح التي أوردناها بل إلى آيات الذم أيضاً. وهذا ما نذكره منها:

«وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ» (سورة البقرة ١٣:٢).

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ... لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً... إِنَّمَا إِلَهُ الْإِلَهِ وَاحِدٌ» (سورة النساء ٤:١٧١).

«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ» (سورة المائدة ٥:٧٣).

«وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» (سورة المائدة ٥:١١٦).

«اتَّخِذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» (سورة التوبة ٩:٣١).

فالمذمة الواردة في هذه الآيات تعود طبعاً إلى الانحطاط الديني في أحوال النصارى آنذا مما جعل هذا الذم أمراً معقولاً. لأنه متى ضل شعب عن قواعده الدينية والوصايا الإلهية الواردة فيها يفقد حق الاحترام. واتباعه التقاليد البشرية بدلاً من الأقوال الإلهية، والخرافات السخيفة الواهنة عوضاً عن الحقائق الشريفة الراهنة المعلنة من السماء يستحق تأنيباً شديداً. لأن مريدي الإصلاح الديني وقاصدي إبادة كل عبادة لغير الإله الحي الوحيد الروح الأزلّي لا يسعهم أن يسكتوا عن ضلال كهذا. فلعل غاية إصلاحية كانت المحرك للتأنيب المشار إليه آنفاً.

ولعل المسلمين الذين يقابلون القضايا المسيحية بالفتور أو بالفتور أو بالاحتقار يحتجون بأن الحروب المسماة «الصليبية» قد غرست ومكنت شعور

الاستياء المشار إليه. فيجيب المسيحي معترفاً بخطأ شعبه في تلك الحروب. لأنه يعلم أنها كانت مخالفة للتعليم المسيحي ولروح المسيح. والذين يعتدرون أنها لم تكن عن بغض مذهبي للمسلمين بل مجرد الغيرة المذهبية النصرانية بقصد الاستيلاء على الأماكن المقدسة التي كانت لهم قبلاً لا يبرهم عذر كهذا من الحكم الذي حكم به الرسول بولس على بعض قومه اليهود بقوله:

«لَأَنِّي أَشْهَدُ لَهُمْ أَنَّ لَهُمْ غَيْرَةَ لِلَّهِ، وَلَكِنْ لَيْسَ حَسَبَ الْمَعْرِفَةِ. لِأَنَّهُمْ إِذْ كَانُوا يَجْهَلُونَ بِرَّ اللَّهِ، وَيَطْلُبُونَ أَنْ يُشْبِتُوا بِرَّ أَنْفُسِهِمْ لَمْ يَخْضَعُوا لِبرِّ اللَّهِ» (رومية ١٠: ٢-٣).

(إن العهدة في الحروب التي كان يثيرها المسلمون للغايات المذهبية ذاتها أو لأجل الانتقام هي على مثيرها والمنصفون منهم يكونون أولى بالاعتراف بخطئها. أما الحروب الأخرى ما بين الشعبين التي كانت لعوامل سياسية أو مطامع قومية فهي خارجة عن نطاق بحثنا الحالي).

فالغيرة بلا معرفة حماسة عمياء تضل المهتدين وتزيد ضلال التائهين

ولم يقع ذلك الخطأ النصراني الجسيم إلا لإهمال النصارى حتى زعمائهم مطالعة كتابهم المقدس قاعدة دينهم. فلما حلت عندهم التقاليد البشرية محل دستورهم الإلهي شبت تلك الغارات الدموية الشائنة المغايرة تماماً لوصايا سيدهم المسيح.

لأن هذه تصرح بأن الدين أمر قائم أصلاً في النفس قبل ظهوره في الأفعال. وقوامه علاقات قلبية صالحة مع الخالق ومع المخلوق. وهو أمر مقرر في التوراة أولاً ثم موضح في الإنجيل في قول السيد المسيح أن الناموس كله والوصايا جميعها متضمنة في وصيتين عظيمتين هما المحبة لله من كل القلب ومحبة القريب كالنفس (مت ٢٢: ٣٧-٤٠).

فكل ما خالف المحبة لله وللناس يكون مخالفاً للدين حسب العرف المسيحي. فالدين الصحيح لا يقيمه السيف بل البرهان وحسن نتيجته. والذي يقيمه السيف يفتقر إلى السيف لأجل دوامه. فالنصارى وجدوا بالاختيار أن النجاح الذي أحرزوه بالسيف في حروبهم الصليبية كان قصير الأمد. لأنهم وهم يعملون باسم المسيح خالفوا روحه ووصاياه ناسين أن من أشرف ألقابه اللقب الذي استعمله النبي إشعياء قبل ظهوره بسبع مئة سنة لما سماه رئيس السلام (إشعياء ٦: ٩). ومن أهم وصاياه ما يأتي:

«لَا تَقَاوُمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الْآخَرَ أَيْضًا. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا. أَحْبِبُوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لَاعِنَيْكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى

مُبَغِضِكُمْ، وَصَلُّوا لِأَجْلِ الَّذِينَ يُسَيِّئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ، لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسُهُ عَلَى الْأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُظِلُّ عَلَى الْأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ» (متى ٥: ٣٩ و ٤٠ و ٤٤ و ٤٥).

والذي وضع على تابعيه وصايا كهذه فعل هو بموجبها مدة وجوده بين الناس وقال في ختام حياته بهذه الصلاة لأجل صالبيه:

«يَا أَبَتَاهُ، آغْفِرْ لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ» (لوقا ٢٣: ٣٤).

فالمسيحي المنصف لا ينكر أنه يطلب من شعبه أن يزيدوا انتباههم إلى تعاليم دينهم وأن يحفظوا وصاياه إذا أرادوا أن يستحقوا محبة المسلمين واحترامهم لهم ولكتائبهم ولمذاهبهم. وأن يقنعوهم بصحة قول سيدهم المسيح «أنا هو نور العالم».

والمسيحي الخبير في دينه يلاحظ سبباً آخر يضاف إلى السابق في تفسير النفور الإسلامي الذي يسبب له أشد الأسف. ويعرف أن مداواة هذه العلة العضالة لا يتم بمجرد إغمد السيف واعتماد الحب والصلاح بدلاً منه، بل يستلزم إدراك حقيقة الدعوة المسيحية وكيفية تقديمها للمسلمين.

وكل متشرب مشرب الإنجيل بواسطة درسه مدققاً يعلم أن بيت القصيد في الدعوة المسيحية ليس النداء إلى تغيير المذهب. لأن الإنجيل لا يكثرث لأمر الصبغة المذهبية. ولا هو الدعوة إلى تغيير الاسم، لأن الاسم «مسيحي» ورد ثلاث مرات فقط في الإنجيل كلقب أطلق على المسيحيين، ولا هو النداء إلى ممارسة فروض معلومة كالمعمودية وغيرها لأن كل الأمور الخارجية حتى أهمها في الدين هي ثانوية.

فبيت القصيد في الدعوة المسيحية هو النداء إلى إيمان حي قلبي شخصي بشخص حي حاضر روحياً أقامه الله مخلصاً وحيداً وكافياً لجميع بني البشر على السواء. والفروض المسيحية بعضها لا يجوز والبعض الآخر لا يصلح استعمالها إلا بعد تلبية هذا النداء الروحي الداخلي أولاً. واعتناق المذهب المسيحي ظاهراً واتخاذ الاسم المسيحي لا يجوز أن مطلقاً على سبيل الرياء والتظاهر الفارغ. ومتى كانا بخلوص واستقامة لا يفيدان إلا كتمهيد للأمر الأول الجوهري. فمتى أدرك المسلم أن هذه هي الحقيقة لا بد من أن يزول كثير من نفوره تجاه الدعوة المسيحية.

هذا وأن من دقق يلاحظ أن يسوع المسيح لم يقل أنا نور جماعتي المسيحيين ولا قال أنا أحد أنوار العالم بل تكلم كمن هو نور العالم أجمع. وكأن كل من أضاء أو يضيء سواه في العالم يستمد نوره منه كاستمداد القمر والنجوم السيارة نورها من شمس هي أعظم منها كثيراً ولا يضاهيها غيرها.

فالمسلم المنصف الذي يمنعه تمسكه بمذهبه من التسليم على الفور بصحة قول يسوع المسيح: «أنا هو نور العالم» لا بد له مع ذلك من الاعتراف بأن الوقوف على الحقيقة لا يتم إلا بالبحث والمطالعة والتفكير بإخلاص تام. بناء عليه لا يرفض مشاركة أبناء ملة أخرى بالبحث. ولا يستنكف من قبول البرهان في قضية ما لمجرد مخالفتها لما ورثه من أسلافه وشب عليه، بل عليه بالآية المشهورة في تأنيب السالكين هذا المسلك.

«قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا أَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا أَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أُولَؤُ هُمْ أَهْلُكُمْ بِأَهْلِيكُمْ وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِمْ آثَارَكُمْ» (سورة الزخرف ٤٣: ٢٢-٢٤).

ويدرك أنه لو تقيّد عيسى ابن مريم مثلاً بمذهبه الأصلي متمسكاً بما ورثه وتعوّده كيهودي لما كان للمسيحية من أثر ولا لإنجيل المسيح من وجود. ويقال مثل ذلك في محمد بن عبد الله القرشي الذي لم يتقيّد في سعيه وراء الحقيقة بما كان قد ورثه وتعوّده بل فتح فتحاً جديداً وربطه بما ورثه وتعوّده مما ورد في التوراة والإنجيل. وهذا الاستقلال الفكري ضروري للسلامة من الضلال.

ولا ريب في أن كل راق يسلم بوجود إجلال الحق الثابت والتفتيش عنه بجتهاد وتدقيق ومثابرة. وذلك ليس في كتبه فقط بل في كتب غيره أيضاً علماً أن الحق يعلو ولا يُعلَى عليه. وذاكرًا مقام الحق الذي هو من أشهر أسماء العزة الإلهية. فمثل هذا يؤيد قول النبي داود:

«آخَرْتُ طَرِيقَ الْحَقِّ» (زمزم ١١٩: ٣٠).

وقول سليمان الحكيم ابنه:

«إِقْتَرِ الْحَقَّ وَلَا تَبْغُهُ» (أمثال ٢٣: ٢٣).

ولا بد من أن يستخدم هذا المدقق ذكاءه في درس قضايا الدين المنزل ليقف على ما هو حق ويرفض ما هو باطل. فيأبى التسليم بالخرافات الصبائية والخزعبلات الملفقة المستولية على الكثيرين من أبناء جميع الملل.

ولا يقبل من الآيات والعجائب إلا ما قد أثبت بالوحي. ويحبذ قول الرمخشري.

«إن كل طريقة لا تقومها حجة فهي طريقة معوجة».

والمنصف يفقه أنه كما لا يُبنى الحكم في جودة الما على العكر منه في مجراه بل على الصافي منه في منبعه كذلك لا يُبنى الحكم في مقام المسيحية سواء كان في الماضي أو في الحاضر على ما يشاهد في

المقصرين من المسيحيين إن حالياً وإن سابقاً بل على ما هو مبين في كتابهم المنزل وفي شخص قائدهم ومرشدهم العظيم الذي هو مرجع تعليمهم ومثلهم الكامل.

والمفكر النزيه يسلم من التعصب المذهبي الأعمى الذي يقيد القوى العقلية إذ يحجب عن صاحبه النور ولو أضاء حوله. لأن الذي يعرض عن التعرض المذهبي وهو يفتش عن الحق يدرك أن المذهب في الدين مع حسنه وضروريته لا يكون أساساً للحكم في ميزان الحق. بل يشبه بملابس الإنسان التي مع كونها حسنة وضرورية فهي لا تعتبر قياساً صحيحاً لمقام المكتسبي بها. فكما يتوقف مقام الإنسان على صفاته لا على ملابسه هكذا يتوقف مقام الدين لا على الاسم بل على المبدأ، لا على المذهب بل على المشرب. لأن هذا هو دليل الحق في الدين.

يصح أن يشبه الدين ببستان ذي أشجار مثمرة والعقائد العديدة فيه بالأشجار - فمجرد الاعتقاد الديني الصحيح هو كالأشجار دون ثمر. لأن ثمر اليقين الصحيح هو الصلاح ولولا الرجاء بالثمر لما غرس الشجر. وإذا طال زمان عدم الأثمار لا تسلم الأشجار من الفأس ثم النار. والعالم لا يشيع ولا يلتد من مجرد صحة اليقين ما لم يحصل على الشيع واللذة من أثمارها في الصفات الحسنة والأعمال الصالحة. والدينونة على إهمال هذه هي أضعاف التي على إهمال اليقين الصحيح. حتى إن عقاب الملحد قد يكون أخف من عقاب المؤمنين الذين تخالف سيرتهم بإيمانهم.

والمسابقة الذهبية بين المتنورين الراقيين تدور حول حسن الصفات أكثر من حسن العقائد. والأول هو الميدان الأشرف للمسابقة بين الجماعات كما بين الأفراد والأجزل فائدة والأسلم عاقبة. لأن المناظرة في اليقين كثيراً ما تولد البغض والحصام حال كون المناظرة في الصلاح تزيد في الفريقين وتقربهما الواحد من الآخر.

وللمبادئ العامة المتفق عليها تفوق عظيم على الخاصة المختلف عليها. فيقصد في البحث الحالي تجنب الغرض المذهبي. واتقاء كل مشاحنة غايتها بناء مذهب ما على أنقاض غيره. والاشتراك كأصدقاء مخلصين في درس مقام شخص المسيح والكتاب المقدس شريعة شعبه.

فيوافق النظر أولاً في تأييد القرآن للكتاب المقدس المنزل والسابق للقرآن في قسميه أي التوراة والإنجيل. وهذا التأييد يرد في آيات كثيرة نكتفي ببعضها ونبتدئ بالتي تشير إلى التوراة والإنجيل بكلام إجمالي.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ» (سورة النساء ٤: ٤٨).  
«ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ» (سورة آل عمران ٣: ٨١).

«وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ» (سورة المائدة ٥: ٤٨).  
«لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» (سورة النساء ٤: ١٦٢).

«وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (سورة يونس ١٠: ٣٧).

«قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (سورة القصص ٢٨: ٤٩).

ومن الآيات التي تشير إلى الكتابين باسميهما:  
«نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ» (سورة آل عمران ٣: ٣٠ و ٤).

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ» (سورة الأعراف ٧: ١٥٧).

«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ... مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ» (سورة الفتح ٤٨: ٢٩).

«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا... وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» (سورة المائدة ٥: ٦٥ و ٦٦).

«قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُفِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» (سورة المائدة ٥: ٦٨).

«وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ» (سورة المائدة ٥: ١١٠).

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (سورة آل عمران ٣: ٦٥).

«سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ» (سورة الفتح ٤٨: ٢٩).

«وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ» (سورة المائدة ٥: ٤٦).

ومن الآيات المؤيدة للإنجيل وحده:  
«وَلِيُحْكَمْ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» (سورة المائدة ٥: ٤٧).

«وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ» (سورة الحديد ٥٧: ٢٧).

ومن الآيات المؤيدة للتوراة وحدها:  
«وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ» (سورة المائدة ٥: ٤٣).

«إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بِهَا النَّبِيُّونَ... وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» (سورة المائدة ٥: ٤٤).

«مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ أَحْمَرَ يَحْمِلُ أَسْفَارًا يَنْسُو مَثَلِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِ اللَّهِ» (سورة الجمعة ٦٢: ٥).

«قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَنُكْفِرُونَ بِمَا وَزَّاهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ» (سورة البقرة ٩١: ٢).

«وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ» (سورة الصف ٦١: ٦).

«وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ» (سورة آل عمران ٣: ٥٠).

«يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ... آمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ» (سورة البقرة ٢: ٤٠ و ٤١).

«قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (سورة آل عمران ٣: ٩٣).

قد انتشر بين المسلمين رأي فحواه أن القرآن قد حل محل التوراة والإنجيل بدعوى أنه يجمع ويلخص في نصوصه كل ما هو ضروري ومفيد فيهما. وأن الكتاب الوحيد الذي يعول عليه في الدين بعد ظهور الإسلام هو القرآن.

فعلى افتراض صحة هذا الرأي لا تكون أهميته وفائدته للمسلم أكثر منها للمسيحي. والبرهان على صحته الذي يكفي للأول يجب أن يكفي للثاني أيضاً. لكن ذات النصوص القرآنية أعظم دحض لهذا الرأي. لأن القرآن يذكر التوراة والإنجيل مع القرآن كأنه كتاب ثالث مستقل عنهما. قال:

«يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ

وَعِدَاً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ» (سورة التوبة ٩: ١١).

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» (سورة سبأ ٣٤: ٣١).

«وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا» (سورة النساء ٤: ١٣٦).

«يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ... وَنُرِيدُ الشَّيْطَانَ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا» (سورة النساء ٤: ٦٠).

فمن هذه الآيات يتبين في القول «كلمة الله وكتبه» بأن الإيمان والكفر لا يتناولان القرآن وحده بل الكتب الثلاثة التي وردت أسمائها في الآية الأولى أي التوراة والإنجيل والقرآن. فكيف يمكن الإيمان أو الكفر بما قد ألغى واستبدل.

ولما قصد محمد الرد على الذين نقموا منه لم يكن يتصريحه بإيمانه بما أنزل إليه بل زاد على ذلك تحقيقه إيمانه بما أنزل من قبل أيضاً (سورة المائدة ٥: ٦٤). وعندما يعزو إلى الشيطان قصد إضلال الناس ضلالاً بعيداً يعلق هذا الإضلال ليس بأمر القرآن فقط بل بما أنزل قبله أيضاً أي التوراة والإنجيل.

فليس بعد مجال للرأي الذي نحن في صده. لكونه غير مستند على الإطلاق إلى أية واحدة قرآنية يمكن للمسلم المدقق المنصف أن يبينه عليها.

يقال أيضاً أنه لو أنزل القرآن بدلاً مما أنزل قبله لكان ينتظر أن يشار فيه إلى بعض آيات ذلك المنزل بحروفها احتراماً لأقوال سابقة إلهية كما هو الواقع في الإنجيل. لأن هذا يأتي باقتباسات كثيرة من سابقة أي التوراة. ويستند إلى ذلك الكتاب استناداً كلياً.

ولا ريب في أن الذين يناصرون الرأي الذي نحن في صده يتذرعون بقولهم أن المولى سبحانه أنزل على موسى كتاب التوراة ثم أنزل على عيسى كتاب الإنجيل خلفاً للأول وبدلاً منه. ثم أنزل على محمد كتاباً ثالثاً هو القرآن خلفاً لسابقيه بمعنى حلوله محلهما وإغناؤه عنهما. فلو صحت المقدمة في هذا الاحتجاج ربما جازت صحة النتيجة في آخره أيضاً. لكن القول بأن الإنجيل حل محل التوراة وخلفها بعيد عن الحقيقة ومخالف أيضاً للنصوص القرآنية. لأن هذه لا تدعم هذين الكتابين بل تحييها كليهما بذكرهما معاً غالباً.

فالإنجيل نتيجة مستلزمة وتامة لضرورة التوراة. ولا قيمة للنتيجة أو التهمة إلا مع ثبوت الأصل والمقدمة وحفظهما. ويسوع المسيح عند أول مباشرته التعليم أيد هذه الحقيقة في قوله:

«لَا تَطْتُوا أَنِّي جِئْتُ لِأَنْقُصَ النَّامُوسَ أَوْ الْأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لِأَنْقُصَ بَلْ لِأَكْمِلَ» (متى ١٧: ٥).

ثم لو كان القرآن بدلاً عن التوراة والإنجيل لصرح بالاستبدال المشار إليه ليكون أهله على بصيرة. لكن ليس في القرآن شيء من الاقتباس الحرفي الذي ذكرناه أولاً ولا من التصريح باستبدال ما بل أنه ينفي الاستبدال مكرراً ذلك كما في الآية التي تؤنب الذين:

«يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ» (سورة الفتح ١٥: ٤٨).

وفي الآية التي تقول:

«فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» (سورة فاطر ٣٥: ٤٣).

نعلم أن البشر لتعرضهم للخطأ يسنون أنظمة ويصدرون مقررات ثم يظهر ما فيها من الخطأ والخلل فيستبدل الخطأ بالصواب والحسن بالأحسن. لكن الباري سبحانه يجلب تماماً عن مثل ذلك. والأنظمة الدينية التي يعلنها في أوقات مختلفة ولشعوب مختلفة ويأمر بحفظها لا يمكن إلا أن تكون متفقة جوهرًا على رغم ما يظهر من اختلاف بعض صورها. لأن العلاقة التي تربط بعضها ببعض مستلزمة وناطقة ومتينة. فلا يكون الوحي لليهودي مغايرًا لما يُعطى للمسيحي. ولا المعطى للمسيحي مغايرًا لما يُعطى للمسلم إلا في الأمور الطفيفة العرضية الوقفية. ولا يسلم العقل السليم بإمكان التناقض الحقيقي في الإعلانات الإلهية.

لذلك ترى أن النظام المسيحي الذي أعلنه الله بعدما أعلن النظام اليهودي قد صدق وثبت الذي أنزل قبله وعظمه وبنى عليه. فالمسيحيون يقرون بقيمة عظيمة ليس للإنجيل فقط بل للتوراة أيضاً. ويثبتون هذا الكتاب الأسبق بحروفه. ويجعلونه الجزء الأول من كتابهم المقدس ويجعلونه كما يجعلون الإنجيل. لأنه الأساس الذي بُني الإنجيل عليه. فيؤلف من التوراة والإنجيل كتاب واحد لا كتابان. إذ الأول بدون الثاني غير كامل والثاني بدون الأول بلا أساس. والاتصال الدائم الجوهري بين التوراة والإنجيل يظهر أيضاً في عود وإشارات ورموز ونوبات مما يتطلب الاتمام والتكملة الظاهرين في الإنجيل. لذلك قلنا أن كلا منهما ناقص بدون الآخر.

فالتوراة ليست لليهود وحدهم. ولا الإنجيل للمسيحيين فقط. بل إنهما كليهما للعالم أجمع مرسلين من الإله الواحد لخلائقه العاقلة كافة لأنه يحبهم جميعاً ويريد خيرهم دون أدنى محاباة. ويموجب الأدلة التي أتينا بها يحكم المسلم العادل

بأن الرأي القائل بالاستبدال الذي نحن في صدده واهن غير مؤيد بالبرهان وأنه مجرد ظن لا حقيقة راهنة. ولعله قد استنبط مقابلة لاحتجاجات اليهود والمسيحيين. فلا يستغرب المسلم صعوبة إقناع غيره بهذا الرأي.

وماذا يجب أن يقال في الرأي الآخر الذي يتمسك به كثيرون من المسلمين وهو أن عدم قبولهم التوراة والإنجيل الحاليين ومضمونها مبني على كونها ليسا الأصليين المؤيدين في القرآن. لأنهم يزعمون أن الأصليين قد فقدوا منذ زمن قديم. فصحة هذا الرأي أيضاً أو عدمه أمر يهم المسيحيين كما يهم المسلمين وغرض الفريقين في فحصه يجب أن يكون واحداً أي البحث بإخلاص للوقوف على مقدار الصواب فيه.

فالقول الأول في هذه القضية هو أن الذي يدعي بأن كتابين مهمين موجودين قد فقد أصلهما عليه أن يقدم برهاناً قاطعاً يؤيد مدعاه ولا سيما متى كانا كتابين منزليين. وأن يبرز صورة ذلك الأصل لأجل بيان الخلل في اللذين يرفضهما. وإن ادعى التحريف أو التزوير في محتوياتهما فعليه أن يدعم مدعاه بحجج دامغة وإلا كانت ادعاءاته فارغة لا يعتد بها. ومثله مثل من يتهم إنساناً بجريمة فيطالبه العدل بالبراهين الكافية وإلا فيسحب تهمة لكونه عاجزاً عن إثباتها.

أما في ما يتعلق بالتوراة فاليهود يحققون بالبرهان أنه منذ كتب كتابهم إلى هذا اليوم كانت محافظتهم على كل من حروفه بل على كل من حركاته أيضاً شديدة جداً لا تفوقها محافظة المسلمين على قرآنهم. وأن بقاء هذا الكتاب سالماً على رغم خراب مدينتهم المقدسة وهيكلهم العظيم وتشتهتهم مدة نحو ألفي سنة في كل أقطار المسكونة لهو من غرائب التاريخ.

فالأمر الذي يستوجب النظر هو قبول المسيحيين توراة اليهود وتأييدها بحرفيتها حال كون الخصام المستمر بين الفريقين أمراً مشهوراً ومن دأبه أن يحمل المسيحيين على رفض كتاب اليهود لو وجدوا لذلك سبيلاً.

واضطهاد اليهود للمسيحيين يوم كانوا في أبان عزهم ووصولهم أمر مشهور بلغ أشده عند صلهم المسيح وما تبع ذلك من إنزال العذاب وضروب التنكيل والفتك بكثيرين من أتباعه حتى ومن رسله (الحواريين) أيضاً.

واليهود أنفسهم لا ينكرون ذلك بل يفتخرون به. ثم لما دارت دائرة الزمان وانتقلت الصولة إلى المسيحيين أخذ هؤلاء بالانتقام فتوالى اضطهادهم اليهود. والشاهد على ذلك المذابح الفظيعة التي أثارها بعض المسيحيين في أنحاء أوروبا المتوسطة

والشرقية فأهلكت ألفاً كثيرة من اليهود فتولدت بغضة مرة وعصالة بين الفريقين دامت زهاء ألفي سنة.

لو كان كتاب اليهود معروضاً حقاً لتهمة التزوير أو التحريف فهل يعقل أن يريده المسيحيون ويتمسكوا به تمسك اليهود أنفسهم ويتخذوه كما هو بحروفه دستوراً لهم مقدساً كإنجيلهم وأن يعتمدوه في مؤلفاتهم ويجلوه ويثابروا على مطالعته ودرسه وتفسيره يومياً ويلتزموا بمضمونه؟ فإنهم لا ينفكون عن استعماله في معابدهم ثم في المدارس والبيوت والمخادع أيضاً. وينفقون سنوياً أموالاً طائلة على طبعه ونشره في كل أقطار المسكونة مع أنه كتاب خصومهم. أليس في كل هذا عبرة ذات شأن عظيم هي من عجائب التاريخ ومن أهم البراهين على صحة التوراة وسلامتها من التحريف؟

والعلماء العصريون يشهدون بوجود نسخ عديدة من التوراة والإنجيل كتبت قبل ظهور الإسلام بمئات السنين. وأنها مطابقة لما ينشر منهما الآن. فلا سبيل لدخول التحريف على التوراة والإنجيل بعد ظهور الإسلام وتأنيدهما في القرآن.

والأمر ظاهر أنه لو دخل التحريف في الإنجيل بعد ظهور المسيح وقبل الفتح الإسلامي لاعتراض القرآن عليه بدلاً من أن يؤيده. ولو دخل بعده لانتضح بالمقابلة مع النسخ القديمة المشار إليها أنفاً (١).

(١) من الأمور الحرة بالذكر أن العناية الإلهية قد هدت أهل العلم إلى نسخ كهذه في العبرانية واليونانية يعرف من شكل حروفها أنها كتبت قبل الإسلام وبعضها قبل ذلك بأكثر من مئتين وخمسين سنة. ولدى المقابلة وجدت في كل مضمونها الجوهري طبق التوراة والإنجيل الحاليين. وقد وجدت أيضاً كتابات أخرى وشروح سابقة للإسلام ترد فيها آيات التوراة والإنجيل وأخبارهما حتى قال العارفون أنه لو فقد هذان الكتابان لأمكن جمع التوراة والأنجيل الأصليين من هذه الاقتباسات العديدة).

فعلى فرض أنه قام إنسان وادعى أن القرآن الحالي ليس هو الأصلي أفلا يرد عليه بأن قبول القرآن عند فرق المسلمين المتباعدة كالسنيين والشييعين وغيرهم هو برهان قاطع على أن القرآن الحالي هو الأصلي؟ وإلا كان بين هؤلاء الأقوام من يبرز قرآناً آخر ويدعي أنه الأصلي وأن قرآن الآخرين محرف.

فمثل هذا البرهان كاف لإثبات سلامة الإنجيل الموجود حالياً عند المسيحيين. لأن اتفاقهم عليه مع كثرة الخصومات العدائية الدموية بين بعض طوائفهم العديدة يدفع كل ريب في ذلك. ولنعلم أن أعظم الاختلافات بينهم هي في ترجمات الإنجيل وتفسيره فقط. ولا تتجاوز كلمات قليلة عدداً وعبارات أقل منها ليست بذات أهمية مما لم يؤثر



قطعيًا في وحدة الإنجيل عند المسيحيين جميعهم في كل أديانهم التاريخية.

ولنعد إلى ما سبقت الإشارة إليه من الارتباط الجوهري بين التوراة والإنجيل مما يؤيد صحتها فنقول أنه لا بد من أن المسلم عند مطالعته التوراة يلاحظ فيها إشارات كثيرة إلى عهد جديد يأتي بعدها. وهذا يعترف به كلا الفريقين اليهود والمسيحيون. فالإنجيل الذي ينطبق على ما يتطلبه الكتاب المنزل قبله ويؤيده لا يمكن أن يكون مزوراً أو محرّفاً. واسمه «العهد الجديد» يدل على ارتباطه «بالعهد القديم». والفاهمون من المسيحيين لا يهتمون بالدفاع عن الإنجيل الذي بين أيديهم ما لم يكن صادقاً. لا بل يهمهم بالأولى أن يتأكدوا أصله وصدقه. لأن العاقل لا يرضى بتأتا أن يتشبه بالكذب لعلمه بأن الدهر لا بد من أن يكشف الكذب والكاذب فيسمي كل متمسك بالكذب مخذولاً ومردولاً.

لا يعرف إلا أهل العلم ما بذله العلماء من التنقيب العلمي المدقق في درس الإنجيل وما يتعلق به. وبين هؤلاء المدققين كثيرون يرفضون التعليم الذي فيه ويرغبون في إفساده علمياً إن استطاعوا. والفريق الآخر (المؤمنون بالإنجيل) شديد الحرص على التجرد في فحصه عن كل غرض يشوب الإخلاص التام والصدق في الأحكام. والفريقان يسعيان لغرض واحد أي الوقوف على الحقيقة مع التباين الكلي في رغائبهما. ونتيجة تحصيلهما هي الاتفاق على نسبة كتابة الإنجيل الحالي إلى رفقاء يسوع ومعاصريه الذين تحمل أسفاره أسماءهم. وفي ما ذكر كفاية لإثبات كون التوراة والإنجيل الحاليين هما الأصلان المؤيدان من القرآن نفسه وأنها سالمان من شائبة التحريف أو التزوير.

من المعلوم أنه متى كانت المباحثة جارية في طريق البساطة والإخلاص يجوز لكل فريق أن يفرض موقفاً لأجل استيفاء البحث صحة ما يدعيه مناظره إلى أن تظهر الحقيقة عند نهاية المباحثة. وعليه قد فرضنا في بداءة هذا البحث صحة ما يدعيه المسلم للقرآن من الوحي الإلهي. فيحق لنا أن نطالب المسلم كما نطالب المسيحي بحصر تقيده في الدينيات بكتابه الذي يعتقد موحى به. إذ هذا الحصر يزيل أصعب العثرات المسببة للتباين الواقع بينهما في أمور الدين. لأن هذه العثرات هي نتيجة الزيادات التي أحقت بما كتب بالوحي.

فكتفي بذكر إضافة واحدة عند المسيحيين وأخرى عند المسلمين. فربما كان أصعب ما يسمعه المسلم من فم المسيحيين أو يقرأه في كتب المسيحيين تسمية مريم أم المسيح «الدة الإله» و «أم الله» فلو

كانت هذه التسمية واردة في كتاب الوحي لما كان للمسيحي مناص من استعمالها.

لكنها لم ترد لأنه لا صحة لها مطلقاً ولا يجوز استعمالها لأن المسيح الذي هو ابن الإنسان كما أنه ابن الله هو ابن مريم في طبيعته البشرية فقط. ولا علاقة قطعاً لها بطبيعته الإلهية إذ ذلك فوق المستحيل. ثم من الوجه الآخر ربما كان من أصعب ما يسمعه المسيحي من فم المسلم أو يقرأه في كتبه هو القول بعصمة الأنبياء في سيرتهم. لأن هذا القول لو صح لكان منافياً لصحة التوراة والإنجيل فيبطلهما. فلم يبق ريب في أن من أعظم وسائل التفاهم والاتفاق حذف الزيادات البشرية والاكتفاء بالأصل الإلهي.

فبعد ما مر من الكلام في ما يقوله المسلم المخلص استناداً إلى قرآنه يسأل ماذا يقوله المسيحي الصادق استناداً إلى إنجيله المؤيد من القرآن. وبعد ما سبق من النظر في ما يجنيه المسلم الصادق الأمين في مذهبه من أثمار جنته القرآنية مما يتعلق بمقام المسيح الرفيع والإنجيل الذي يورد أخباره وكلامه يطلب من المسيحي أن يوضح لأخيه المسلم بعض أثمار الفردوس الإنجيلي لكي ينصف في أحكامه في الأمور المسيحية.

فالشروح التي بسطناها هي التمهيد للمقصد الرئيسي من مقالتنا أي النظر في ما هي معاني قول يسوع المسيح: «أنا هو نور العالم».

وحيث أن الإنجيل الموجود بين أيدينا مؤيد في القرآن وحيث أنه ينسب هذا الكلام إلى النبي العظيم الذي فاه به يصبح هذا القول قيماً على المسلم أيضاً. لأنه يشبه نور الشمس الذي هو عام وشامل ولا ينحصر ببعض فئات من البشر. فكم بالأحرى يكون نور الحق الإلهي عاملاً شاملاً.

إن قول يسوع المسيح: «أنا هو نور العالم» ورد في خطاب ألقاه على الشعب اليهودي ورؤسائهم في هيكلمهم العظيم في أورشليم. وليس هذا القول بسيطاً ولا تصديقه سهلاً. فرفضه آنذاك سامعوه رفضاً باتاً. ولكن قبول قول كهذا أو رفضه يتوقف على ما نعتقده في شخص المتكلم.

إذا قال زائر غريب مجهول «أنا هو حاكم أعظم دولة في العالم» ماذا يحكم السامعون؟ لا ريب في أنهم يحكمون إما أنه يتكلم مازحاً فلا يكثر له ولا لأقواله. أو يتكلم هاذباً لفقدته الرشد العقلي فيؤسف عليه ويتعد عنه. أو يتكلم كاذباً فيؤم ويحتقر ويحذر منه. وإلا فإنه يتكلم صادقاً فيطبق السامعون سريعاً معاملة على رفعة مقامه.

ولا ريب في أنه يستحيل على المسلم المستقيم أن يتهم عيسى ابن مريم بالمزاح أو الهذيان أو الخداع. إذا

هو صادق بقوله: «أنا هو نور العالم». لو كان هذا القول منفرداً في بابه لأمكن الشك بأنه قد دخل في الإنجيل المقدس خطأ أو خلصة. لكنه يتفق تماماً مع كثير غيره من أقوال هذا النبي الشهير المدونة في الإنجيل. وينطبق أيضاً على الموقف الذي اتخذه لنفسه كل أيام ظهوره بين الناس. لذلك يتحتم أن يكون نور المسلمين أيضاً. وهذا القول حيوي لعلاقته بخلاصهم الأبدي. لأن العاقل يعلم أن شروط الخلاص والهلاك أجل وأعدل من أن تكون مذهبية أو أن تتنوع وتختلف باختلاف الشعوب والنحل. وهذه الشروط هي من باب النور الروحاني الذي يرمز إليه النور الطبيعي ولا يتناول تنوعه شكله الجوهري. لأن هذا لا يكون على الدوام إلا واحداً.

لا ريب في أنه متى أقام الله للناس مخلصاً من الهلاك الأبدي فالذي يصلح لليهودي لا بد من أن يصلح أيضاً للمسلم وللمسيحي وللوثني. فالسؤال عمن هو المخلص المعين من الله لينجي البشر من الخطيئة والهلاك هو أهم سؤال لجميع الطوائف. والجواب واحد للكل.

من المسلم به أن الاختلافات المذهبية في الأمور العرضية قد تكون مفيدة لا بل ضرورية كاختلاف الأصابع في اليد الواحدة واختلاف الفرق العديدة في الجيش الواحد. غير أن الاختلاف الجائر والمفيد لا يتجاوز إلى الجوهريات في الدين.

وكما اتفق أهل الكتاب جميعاً على الاعتقاد بإله واحد فقط وعلى صفاته تعالى. عليهم أن يتفقوا أيضاً على المعتمد الإلهي الخاص المقام من هذا الإله الواحد لخلاص جميع البشر. ولهذا الاتفاق أهمية فائقة. لأن على هذا المعتمد وحده يعول لأجل إعلان أفكار الخالق وإيضاح إرادته الكاملة وإظهار تدبيره تعالى لتخليص الناس من الخطيئة مع شروط النجاة من الدينونة الأبدية وعقابها. ولا يستطيع إلا هذا المرسل من السماء أن يمثل في شخصه أمام أعين البشر ما يمكن ويجوز تمثله من صفاته عز وجل واضعاً لهم في سيرته مثلاً بشرياً كاملاً ليتمثلوا به في كل أطوارهم. فمن هو يا ترى هذا المعتمد الوحيد المرسل لخلاص البشر.

إن في الإنجيل آيات كثيرة تبين أن في يسوع ابن مريم تتم الشروط والمطالب التي ذكرناها. وهذا سر اللذة الفائقة التي يشعر بها مطالعو الإنجيل بنية خالصة وفكر سليم ورغبة صادقة في الوقوف على كيفية الخلاص من الخطيئة وعواقبها.

يفيدنا العلم أنه عندما تقع أشعة النور على موشر (مجسم) من زجاج تحل إلى ألوانها السبعة التي يتكون منها النور الكامل كما إذا وقعت على قطرات الغيث فيتكون منها قوس قزح الذي قد تعين قديماً لنوح الصالح يحقق له الرحمة الإلهية نحو البشر.

فعلى قطرات غيوث الرحمة الإلهية نحو البشر الخطاة الهالكين يرسم قوس قزح النور الروحاني المنحدر من السماء في شخص يسوع المسيح نور العالم. وإذا كان للعالم فوائد علمية عظيمة من حل العلماء النور إلى ألوانه المختلفة لأجل استخدام كل لون بمفرده في العمليات المهمة فكم بالأحرى تحصل فوائد عظيمة من درس صفات الشخص الذي هو نور العالم واحدة واحدة.

يجد المطالع إشارة جلييلة إلى تفصيل كهذا في قول الرسول يوحنا الحبيب في الإنجيل:

«كُنْتُ فِي الرُّوحِ فِي يَوْمِ الرَّبِّ، وَسَمِعْتُ وَرَأَيْتُ صَوْتًا عَظِيمًا كَصَوْتِ بُوقٍ قَائِلًا: «أَنَا هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ... فَأَلْتَفَتْتُ لِأَنْظُرَ الصَّوْتِ الَّذِي تَكَلَّمَ مَعِي. وَلَمَّا أَلْتَفَتْتُ رَأَيْتُ سَبْعَ مَنَائِرٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَفِي وَسْطِ السَّبْعِ الْمَنَائِرِ شَبْهَ ابْنِ إِنْسَانٍ، مُتَسَرِّبًا يَتَوَبَّ إِلَى الرَّجْلَيْنِ، وَمُتَمَنِّطًا عِنْدَ نَدْيَيْهِ مِمَّنْطَقَةٍ مِنْ ذَهَبٍ. وَأَمَّا رَأْسُهُ وَشَعْرُهُ فَأَبْيَضَانِ كَالصَّوْفِ الْأَبْيَضِ كَالنَّالِجِ، وَعَيْنَاهُ كَلْهَبٍ نَارٍ. وَرِجْلَاهُ شَبْهَ النَّحَاسِ النَّقِيِّ، كَأَنَّهُمَا مَحْمِيَّتَانِ فِي أَتُونٍ. وَصَوْتُهُ كَصَوْتِ مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ. وَمَعَهُ فِي يَدِهِ الْيُمْنَى سَبْعَةُ كَوَاكِبَ» (رؤيا ١: ١٠-١٦).

تتصور أن كلا من هذه الكواكب السبعة في يمين هذا الشخص المجيد الذي هو «شبه ابن الإنسان» يمثل إحدى سجايه الفريدة التي بامتزاجها بعضها ببعض وضمها في شخص واحد يحصل النور الساطع الذي يصلح لأن يكون نور العالم أجمع. ففي بحثنا الحالي نوجه النظر إلى الأمور التي يتفرد فيها يسوع المسيح وهي محصورة فيه لا يشاركه فيها أحد وليس إلى التي يتفوق فيها فقط على غيره من الرسل والأنبياء كالحكمة والرزانة والتواضع والغيرة والحلم والصبر والاستقامة والتسليم إلى المشيئة الإلهية وغيرها.

ومن المعلوم أن سجاي يسوع المسيح لا تعرف إلا من سيرته المكتوبة في الإنجيل. فالمستندات في هذا البحث هي أقوال الإنجيل الذي عرفناه باقياً على وضعه الأصلي وأيقنا أنه خبر صحيح وصادق يفيد حقيقة شخصية يسوع المسيح وأقواله وأعماله. فيحقق لنا الأمل باعتراف المسلم الحر بما لهذا الفرد الجليل من المزايا المثلثة في الكواكب السبعة التي يمسكها في يمينه وأولها ما يأتي.

نور الأرض الطبيعي ليس من الأرض ذاتها بل من الأجرام السماوية فوقها. ونور العالم الروحاني لا يمكن أن يكون من أهل العالم بل من فوق العالم أي من السماء منبع النور الروحاني. فلا عجب أن الذي

قال: «أنا هو نور العالم» قد صرح مراراً أنه أتى من السماء. وقد ورد في الإنجيل:

«فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهُ. وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْداً كَمَا لِيُوحِيدٍ مِنَ الْآبِ، مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً» (يوحنا ١: ١٤).

وقال يسوع المسيح لسامعيه من اليهود: «أَنْتُمْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ» (يوحنا ٨: ٢٣).

«وَلِهَذَا قَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ لِأَشْهَدَ لِلْحَقِّ» (يوحنا ١٨: ٣٧).

«أَنَا هُوَ الْخَبْرُ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ» (يوحنا ٤: ١٦).

«فَقَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ» (يوحنا ٨: ٥٨).

ولما اعترضوه على قوله أنه نور العالم أجابهم: «وَأَنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي حَقٌّ، لِأَنِّي أَعْلَمُ مِنْ أَينَ أَتَيْتُ وَإِلَى أَينَ أَذْهَبُ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَا تَعْلَمُونَ مِنْ أَينَ أَتَيْتُ وَلَا إِلَى أَينَ أَذْهَبُ» (يوحنا ٨: ١٤).

ولما صلى قال: «وَالْآنَ مَجْدُنِي أَنْتَ أَيُّهَا الْآبُ عِنْدَ ذَلِكَ بِأَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ» (يوحنا ١٧: ٥).

إنه لا يمكن للعين البشرية أن ترى النور الإلهي وقد ورد في الإنجيل بيان ذلك في قوله:

«اللَّهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ. الْإِبْنُ الْوَحِيدُ الَّذِي هُوَ فِي حِضْنِ الْآبِ هُوَ خَبْرٌ» (يوحنا ١: ١٨).

فهذه الآية تفيد أن الذي هو نور العالم نزل من السماء ليظهر للبشر باتخاذ طبيعة بشرية حقيقية لما ولد من مريم العذراء ففي نزوله من السماء وتأنسه تفرد عن سائر الرسل والأنبياء. ولكونه الشخص الوحيد السماوي الذي سكن العالم منذ البدء إلى الآن يحق له أن يكون نور العالم أجمع (٢).

(٢) من المعلوم كم هو الميل الفطري في جميع الشعوب والملل إلى تسمية أولادهم بأسماء عظمائهم ولا سيما أنبيائهم ولذلك نرى كثرة عدد ناقلي أسماء إبراهيم وسارة ويعقوب ويوسف ورفقة وراحييل وموسى وهارون وصموئيل وحنة ودود وسليمان وإيليا ثم محمد وعلي وخديجة وفاطمة وحسن وحسين وأحمد (أما اسم عيسى فهو ليس اسم المسيح في الإنجيل بل اسمه يسوع) أفلا يجد المفكر عبرة متفكرة مع أصله السماوي في تمتع العالم مدة تقارب ألفي سنة عن إعطاء اسم يسوع

لبنينهم مع أن اسم أمه مريم أصبح أكثر الأسماء النسائية في العالم شيوفاً.

## الكوكب الأول: أصل يسوع المسيح السماوي

ومن هذا الكوكب يسطع نور الطهارة التامة في طبيعته. ولا ريب في أنه لا يصلح أن يكون نور العالم إلا من كان تام الطهارة.

وليس من طاهر تماماً بين أهل العالم، فلا يمكن أن يأتي مثل هذا إلا من السماء مركز الطهارة. ولذلك فالنزول من السماء صار شرطاً لازماً في من يقيمه الله مخلصاً وشفيعاً للبشر. والقلوب الطالبة الخلاص والصلاح تفتتح طبعاً لخلص يأتيها من السماء. لأنه وحده يستطيع أن يعلن لها الأمور السماوية على صورة جلية وحقيقية. فالذي يتبع مخلصاً أصله سماوي وطهارته تامة ويشتهي أن يتشبه به يكتبسب طهارة بنظره إليه دائماً. فنور طهارة مخلصه يضيء في ظلام سبيله ويريه حقائق جديدة سماوية. لأن هذا المخلص يهتم أولاً بالطهارة الفكرية في القلب ثم بالدرجة الثانية بالطهارة الفعلية في الظاهر. وقد أوضح ذلك جلياً في وصاياه لتابعيه كما بقوله:

«وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضُبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلاً يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لِأَخِيهِ: رَقاً يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْجَمْعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ. فَإِنْ قَدَّمْتَ قُرْبَانَكَ إِلَى الْمَذْبَحِ، وَهُنَاكَ تَذَكَّرْتَ أَنَّ لَأَخِيكَ شَيْئاً عَلَيْكَ، فَاتْرُكْ هُنَاكَ قُرْبَانَكَ قُدَّامَ الْمَذْبَحِ، وَادْهَبْ أَوَّلًا أَصْطَلِحْ مَعَ أَخِيكَ، وَحِينَئِذٍ تَعَالِ وَقَدِّمْ قُرْبَانَكَ... وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى أَمْرَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ رَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ. فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ الْيُمْنَى تُغَيِّرُكَ فَاقْلَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنكَ، لِأَنَّهُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ أَعْضَائِكَ وَلَا يُلْقَى جَسَدُكَ كُلُّهُ فِي جَهَنَّمَ. وَإِنْ كَانَتْ يَدُكَ الْيُمْنَى تُغَيِّرُكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنكَ... وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لَا تَحْلِفُوا بِالْبَيْتَةِ، لَا بِالسَّمَاءِ لِأَنَّهَا كُرْسِيُّ اللَّهِ، وَلَا بِالْأَرْضِ لِأَنَّهَا مَوْطِئُ قَدَمَيْهِ، وَلَا بِأَوْرُشَلِيمَ لِأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ. وَلَا تَحْلِفُ بِرَأْسِكَ... بَلْ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ: نَعَمْ نَعَمْ، لَا. وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الشَّرِّيرِ» (متى ٢٣: ٢٤-٣٧).

«فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ آبَاءَكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ» (متى ٥: ٤٨).

فهو الإنسان الوحيد الذي لم يقل إلا وفعل أولاً.

وفعل أكثر مما طلب من الآخرين. ففي النظر إليه والإيمان به عون عظيم لكل من يروم لنفسه الطهارة وفقاً لقول الكتاب:

«إِنْبَعُثُوا... الْفَدَاسَةُ الَّتِي بَدُونَهَا لَنْ يَرَى أَحَدُ الرَّبِّ» (عبرانيين ١٢: ١٤).

ومن المعلوم أن الأمر الجوهري في البصر هو الشخص الذي يرى وليس الجسم الذي يراه. وفي السمع هو السامع وليس المسموع. وفي الكلام هو المتكلم لا كلامه. ففي الدين أيضاً الجوهر هو الشخص المؤمن وليس صورة إيمانه، وليس في هذا الكلام حط في ما للجسم والصوت والكلام وصورة الإيمان من الأهمية والكرامة. بل يقصد منه بيان تعليم المذهب المسيحي المعلن أهمية الارتباط الشخصي القلبي والاتحاد الروحي بين المؤمن الفرد وبين المخلص العام المقام من الله.

ولهذا الاتحاد تأثير روحي يحول صفات المؤمن الحقيقي تحويلاً تدريجياً إلى شبه ذلك المخلص في الكمالات الأدبية والدينية. وكل من يسمى مسيحياً ولا يظهر فيه ذلك التأثير يبرهن أنه فاقد الارتباط المشار إليه وأن مسيحيته اسمية فقط لا حقيقية.

وهذا النزول من السماء يخول يسوع المسيح ليس فقط التفوق على أعظم البشر وأصلحهم بل التفرد عنهم جميعاً. ولا يمكن أن يمسك يمينه هذا الكوكب الأساسي إلا هو وحده.

ثم يرى بجانب هذا الكوكب كوكب ثان وهو:

## الكوكب الثاني: النُّبُاتُ الاختصاصية بالمسيح

فمع أنه قد وردت إعلانات نبوية سابقة لظهور بعض عظماء التاريخ، يتفرد يسوع المسيح بين هؤلاء جميعاً في كيفية ما سبق مجيئه من الإعلانات. لأن قدمها وكثرتها وتتابعها مدة ألوف السنين ودقة تفاصيلها وصدقها وعدد الذين أعلنوها وتنوع طبقاتهم تجعلها تمتاز عن غيرها مما يتعلق بغير شخص يسوع المسيح. فإنها أنزلت على أشخاص كثيرين كل منهم بعيد عن الآخر في المكان والزمان والأحوال وكانت تنبئ بمسيح سيأتي على صورة لم تنطبق على شخص آخر قام أو يقوم في تاريخ العالم كله.

ومن أهم هذه الإعلانات الرموز التي وضعت بأوامر إلهية ومارسها الشعب الإسرائيلي بحرص شديد في كل تاريخهم. فكان مصدر نور شعب الله المختار في القديم هو شخص المسيح الموعود به. وعليه لما ظهر «في ملء الزمان» هذا الشخص تحقق أنه كان نور العالم قبل مجيئه أي من البدء وقبل خلق آدم إلى يوم ظهوره وليس فقط من يوم ظهوره إلى هذا اليوم.

ومن كوكب هذه الإعلانات النبوية يضيء نور استقامة يسوع المسيح وصدقه. لأن الشخص الذي تصدق عليه كل هذه النبوات المتتابعة في خلال الوف السنين لا يمكن إلا أن يكون صادقاً. وعلى صدق كلامه ومواعيده يتوقف خلاص البشر، لأن الصدق في مخلص البشر شرط لازم. والصدق أي الحق وحده ينير. وعدمه ظلام. فنور العالم لا يكون إلا صادقاً وقد قال له المجد:

«أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الْآبِ إِلَّا بِي» (يوحنا ١٤: ٦).

وهو وفي لكل وعد من مواعيده. ولهذا هي سند أمين وركن متين في كل أحوال الحياة وأدوارها وتكفل للمؤمن الحقيقي خيرات وافرة في هذا الزمان وفوقها أضعاف الأضعاف في الزمن الآتي. وما أصح القول أن في اللذة التي يجدها المطالع في الإنجيل الحاوي تلك المواعيد تبتدئ الشكوك والخاوف والأحزان.

ولا عجب في رغبة كل مسيحي يفهم كنه الدعوة المسيحية الحقيقي في أن يعرضها على غيره ولا سيما على أخيه المسلم. لأن هذه الدعوة هي بشارة مفرحة تزيل الكرب وتملأ قلب المؤمن سلاماً كاملاً واطمئناناً وبهجة. فهذا الكوكب اللامع أي كوكب الإعلانات النبوية لا يسكه يمينه إلا هو.

## الكوكب الثالث: سلطان يسوع المسيح بالقول والفعل

تكلم غيره من الرسل والأنبياء بما أنزل عليهم مصرحين بأن الكلام الذي يأتون الشعب به ليس كلامهم أنفسهم فيقولون: «هكذا قال رب الجنود» أو «كانت إلي كلمة الرب». لكن يسوع تكلم بصورة جعلت الخبير يقول:

«بُهِتَ الْجُمُوعُ مِنْ تَغْلِيْمِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ كَمَنْ لَهُ سُلْطَانٌ وَلَيْسَ كَالْكَتَبَةِ» (متى ٢٨: ٧-٢٩).

وقال هو مرة:

«دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الْأَرْضِ» (متى ٢٨: ١٨).

«لِأَنَّ الْآبَ لَا يَدِينُ أَحَدًا، بَلْ قَدْ أَعْطَى كُلَّ الدِّيُونَةِ لِلْأَبْنِ، لِكَيْ يُكْرِمَ الْجَمِيعَ الْآبْنَ كَمَا يُكْرِمُونَ الْآبَ» (يوحنا ٥: ٢٢ و٢٣).

وقال إنه سيأتي ثانية بمجده في ملكوته مع ملائكته ومختاربه (متى ٢٥: ٣١ و٣٤). إذا المجد والملوك والملائكة المختارون كلهم له إذ هو والآب واحد كما قال.

وقال إنه في اليوم الأخير هو يقيم الذين يؤمنون به

(يوحنا ٦: ٣٩ و٤٠). وأنه يحيي من يشاء (يوحنا ٥: ٢١).

وقد ظهر سلطانه في أعماله كما في أقواله إذ تصرف كأمر وكان يمنح التائبين غفراناً إلهياً كاملاً وثابتاً. وبذلك أغضب رؤساء اليهود حتى حكموا عليه بأنه يجدف وقالوا:

«مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَغْفِرَ خَطَايَا إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ» (مرقس ٧: ٢).

وعندما أقام الموتى كان يأمرهم أمراً كما فعل في إقامة لعازر من قبره قائلاً:

«هَلُمَّ خَارِجاً» (يوحنا ١١: ٤٣).

وهكذا كان يأمر الشياطين والأنواء كمتسلط عليها فقطيعه. ففي إظهاره السلطان قولاً وفعلًا لم يمثله نبي ولا رسول.

ومن هذا الكوكب اللامع كوكب سلطانه يتألق نور قدرته الفائقة الشاملة. قال:

«لَكِنِّي تَعَلَّمُوا أَنَّ لِأَبْنِ الْإِنْسَانِ سُلْطَانًا عَلَى الْأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ خَطَايَا» (مرقس ٢: ١٠).

فهل يستطيع أحد ليس له قدرة كهذه أن ينير العالم أجمع ويخلص جميع البشر من الآثام؟ كلا. لأنه من يركن يا ترى إلى مخلص قدرته بشرية فقط.

فكوكب سلطان يسوع المسيح وقدرته ينير طريق كل من يلجأ إليه شاعراً بضعفه وقصوره ومشتاقاً إلى مخلص قدير لأنه يجد في المسيح الذي كان يخرج الشياطين مخلصاً يطرد من قلبه إبليس رئيس الشياطين. وفي من كان يسكن بكلمة هياج الرياح والأمواج يجد من يزيح من طريقه كل العقبات وبواعث الفشل التي تتعرض له. وفي من كان يقيم الموتى يجد مخلصاً يثبت فيه من روحه نشاطاً جديداً وحياة جديدة. وفي من فتح قلبه ويديه للفقير والحقير والشرير التائب يجد من يشفع فيه شفاعاً فعالة أمام عرش العظمة في سماء المجد. وفي من قام من قبره في اليوم الثالث يجد مخلصاً يقتلع من قلبه آفة الخوف من الموت فيحول فراش الوفاة إلى سرير الحياة وغلبة الهاوية إلى النصر المجيد وباب القبر المظلم إلى باب السعادة النيرة في الأمجاد السماوية.

فالسلطان إذا شرط ضروري في المخلص الذي يقيمه الله ويجعله نور العالم. وهذا كوكب لا يسكه يمينه إلا يسوع وحده.

## الكوكب الرابع: الإكرام

كل إنسان يرفض السجود الديني المقدم له يبرهن بذلك أنه غير مستحق لذلك الإكرام. وعليه إذا ظهر

الحضور كوكباً باهراً لا يمسكه بيده إلا يسوع المسيح وحده.

## الكوكب السادس: موته وقيامته

كانت الغاية العظمى من نزوله من السماء وإتيانه إلى العالم أن يموت عن البشر مقدماً بذلك كفارة عن خطاياهم وأن يفتح للتائبين باب الخلاص والسماء قال: «إِنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ آتَى لِيَبْدِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ» (متى ٢٠: ٢٨).

وقال مشيراً إلى صلبه العتيق «وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى آخِيَّةً فِي الْبَرِّيَّةِ هَكَذَا يَبْنِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الْإِنْسَانِ، لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ» (يوحنا ٣: ١٤ و ١٥).

وتكلم مراراً قبل صلبه عن عزمه أن يسلم ذاته للموت صلباً. وأن يتم بصلبه تلك النبوات القديمة التي تشير إلى ذلك نظير النبوة الآتية ذكرها «ظَلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاةً، كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ، وَكَعَجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَارِيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاةً». والتي تشير إلى أنه «جَعَلَ نَفْسَهُ ذَبِيحَةً إِثْمٍ» (إشعياء ٥٣: ٧ و ١٠).

غير أن موته الكفاري لا ينفصل عن قيامته المجيدة في اليوم الثالث بعد موته وذلك على صورة عجيبة متفردة عن قيامة كل من قام سواه من الموت. فقيامته أثبتت القصد من موته حسماً أوضح ذلك في حياته. فكما تفرّد بإبائه أن يموت صلباً وجعل هذا غايته في نزوله من السماء تفرّد أيضاً في قيامته لأن في الأمرين لم يمثله أحد من الرسل أو الأنبياء ((وأهمية الذبيحة وسفك دمها في المعتقد المسيحي تجعل الذبيحة على جبل عرفات وذكرها في عيد الاضحى رابطة قوية بين المذهبين).

فمن كوكب موته الكفاري وقيامته يتلأأ نور حبه غير المتناهي. لأن كل ما سبق من الكواكب لا يجدي البشر الخطاة نفعاً إلا بإضافة هذا الكوكب السادس. فإن نزوله من السماء وسلطانه المطلق وإتمامه النبوات وقبوله السجود وحضوره الدائم من شأنها أن تخيف وتدين وتهلك البشر الخطاة ما لم يرافقها حب يقابلها. والحب العادي المألوف لا ينير العالم المظلم لأنه أشبه بفتيلة مدخنة. ولكن متى انتفتت الشروط السابقة مع شرط الحب الغير المتناهي للبشر الخطاة في شخص صاحب تلك الشروط العظيمة يتخذها وسيلة لتخليص البشر من الخطيئة والهلاك الأبدى يصبح ذلك الشخص صاحب الحق في أن يكون نور العالم.

إن عظمة المسيح ليست هي الركن الأعظم في الإيمان المسيحي. لأن العظمة وحدها لا تنير فإن

الأماكن والعصور على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وأحوالهم وعاداتهم وحاجاتهم. وليخرجهم من قفر الإثم والظلام ويأتي بهم إلى فردوس القداسة والسلام. يحتاج البشر إلى قائد يحق له أن يقول كما يقول يسوع:

«مَنْ يَتَّبِعْنِي فَلَا يَخْشِي فِي الظُّلُمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورٌ حَيَاةً» (يوحنا ٨: ١٢).

فالقائد الذي نزل من السماء ومنح السلطان ونال بحق إكرام السجود هو الذي يصلح للقيادة الدائمة العامة للبشر أجمع. وكوكب الإكرام الذي ناله هذا الخالص ينير لأنه يشجع جميع الناس على التشبه بالذين أدوا له هذا الإكرام الممتاز متأكدين حقه في ذلك لعدم رفضه إياه حال كونه آية الاستقامة والوداعة والبساطة وإنكار الذات. فيجدون في الصلاة له لذة فريدة لأنه كان شريكهم في الطبيعة البشرية وتجاربها وآلامها. ولأنه قريب منهم يرثي لضعفاتهم. وكوكب الإكرام هذا لا يمسكه يمينه إلا يسوع وحده.

## الكوكب الخامس: حضوره الدائم

قد صرح يسوع مراراً بأنه يكون حاضراً حضوراً روحياً وفعلياً مع المؤمنين به في كل مكان وزمان. وبأنه ينير القلوب المظلمة بحلوله فيها بروحه. فيما أنه أصدق الصادقين يؤهله هذا الحضور لأن يكون نوراً لكل العالم. ولأن يقود كل من آمن به كفائد حي عظيم.

فمن كوكب حضوره الدائم مع تابعيه أينما وجدوا يسطع نور علمه الفائق. وهذا العلم شرط لازم في من يأتي من السماء إتماماً للنبوات ويسلم السلطان ويكرم بالسجود كما أن حضور شخص له هذه الامتيازات المهمة يدفع كل ريبة في علمه الفائق. قال الإنجيل فيه «لأنه كَانَ يَعْرِفُ الْجَمِيعَ. وَلَأنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُحْتَاجاً أَنْ يَشْهَدَ أَحَدٌ عَنْ الْإِنْسَانِ، لِأنَّهُ عَلِمَ مَا كَانَ فِي الْإِنْسَانِ» (يوحنا ٢٤: ٢ و ٢٥).

وأيضاً «فَعَلِمَ يَسُوعُ أَفْكَارَهُمْ، فَقَالَ: لِمَاذَا تَفَكَّرُونَ بِالشَّرِّ فِي قُلُوبِكُمْ» (متى ٩: ٤).

وأيضاً «قَالَ لَهُ تَلَامِيذُهُ: ... الْآنَ نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَسْتَ تَحْتَاجُ أَنْ يَشَافِكَ أَحَدٌ. لِهَذَا نُؤْمِنُ أَنَّكَ مِنَ اللَّهِ خَرَجْتَ» (يوحنا ١٦: ٢٩ و ٣٠).

وبما أن حضوراً كهذا لم ينسب إلى غيره نبياً كان أو رسولاً ولا ادعاه أحد منهم لنفسه أصبح هذا

شخص يعترف العالم إجمالاً بامتيازته في الصلاح وقال إنه هو ابن الله الوحيد الآتي من السماء ثم قبل سجوداً قدم له يؤخذ قبوله ذلك برهاناً على صدق قوله عن نفسه ودليلاً على تفوقه على جميع البشر بل وعلى تفرده عنهم. ولا شك في أن هذا هو معنى قبول يسوع المسيح السجود الذي قدم له مراراً.

لأننا نعلم أنه لم يرض رسول ولا نبي ولا ملاك أن يقدم له السجود أو أن يُعطى ألقاباً تختص بالله. لكن يسوع المسيح مع سمو مداركه ومزيد تواضعه وشدة تعلقه بالله وفرط تسمكه بإكرامه ومع تصريحه بأن السجود والعبادة لا يكونان إلا لله لم يرفض قبولهما عندما قدما له حتى من تلاميذه المستقنين تعليمه. ولما خاطبه أحد رسله قائلاً «رَبِّي وَإِلَهِي» (يوحنا ٢٠: ٢٨). لم ينتهره. وكذلك لما قال له رسول آخر «أَنْتَ تَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ» (يوحنا ٢١: ١٧).

كان في عرف الناس أنه نجار فقير من قرية الناصرة وبعيد جداً عن أن تكون له مملكة أرضية في الحال أو في المستقبل. ومع ذلك فإنه عندما دخل إلى أورشليم راكباً شجع جمهور الذين استقبلوه هاتفين «مُبَارَكُ الْمَلِكِ الْأَبْنِيِّ بِاسْمِ الرَّبِّ» (لوقا ١٩: ٣٨).

وهذا الحادث كان حجة لخصومه لما طلبوا صلبه فشكوه للوالي الروماني بأنه مشاغب يقصد قلب عرش الملك قيصر. فلما سأله الوالي «أَنْتَ مَلِكُ الْيَهُودِ؟» (يوحنا ١٨: ٣٣). أجابه بالإيجاب بقوله «مَلِكِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ» (يوحنا ١٨: ٣٦).

والوالي نفسه كتب عنوانه فوق صليبه باللغات الثلاث «يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ مَلِكُ الْيَهُودِ» (يوحنا ١٩: ١٩).

لم يتأت مثل ذلك لنبي ولا لرسول. ولا حصر أحدهم الخلاص بنفسه كما فعل يسوع المسيح الذي كان يدعو الناس أن يأتوا إليه ويؤمنوا به. وكما يتضح كثيراً مما نطق به كقوله:

«تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَقِيلِي الْأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ» (متى ١١: ٢٨).

ولم يستعمل صيغة الجمع في كلام يجمعه مع غيره في أمور الدين كعادة الناس بل كان يقول: «أنا» لا نحن كأنه منفرد عن البشر في الأحكام الدينية. وظهر تفرده أيضاً في أنه لم يستغفر الله قط ولم يظهر ندامة ولا اعتراف بزلة ما.

فمن كوكب الإكرام هذا يشرق نور قيادة يسوع المسيح.

إن حاجة البشر العظمى هي إلى قائد يكون كفءاً لقيادة كل شعوب الأرض في جميع

«أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ... لَا يَكُنْ لَكَ إِلَهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي» (خروج ٢٠: ٢-٣).

فكما أن الله لكل البشر ولا يمكن تخصيصه بصفة أو ملة أو أمة دون غيرها يجب أن يصح ذلك أيضاً في من هو ابن الله الوحيد. فليس هو المسيح المسيحيين دون المسلمين. وتخصيص المسيحيين إياه بهم وحدهم خطأ عظيم ناتج عن إهمالهم درس الإنجيل وعدم اعتمادهم تعاليمه. فيسوع ابن مريم مسيح كل من يقبله من بني البشر أجمعين في كل زمان ومكان ودعوته عمومية لجميع الناس يقطع النظر عن المذهب والجنس. وكل ذلك مؤيد وموضح في الإنجيل.

كل الأنوار التي من صنعة البشر تكون محصورة في مكان واحد معلوم بخلاف النور الذي خلقه الله فهو عام وبضيء على كل العالم. وفرق كهذا ظاهر بين الدين الذي هو ابتداء بشري ليحصر زعيمه وكتابه في فئة واحدة من البشر وبين الذي يوحيه الله ويعلنه للناس فيكون عاماً ويشمل البشر جميعاً ولا يحتمل الانحصار أو الاحتكار. فيسوع المسيح مخلص لكل البشر والكتاب المقدس أي التوراة والإنجيل رسالة موجهة لكل البشر على السواء. ومهما كررنا هذه الحقيقة لا يمكن أن نفيها حقها من الأهمية والاعتبار.

في شرائع التمدن يعد المتهم بريئاً إلى أن تثبت جرمته. ولا سيما إذا لم يكن له سوابق سيئة بل كان من أهل الفضل والفضيلة. وعلى هذا المنوال يصح القول السابق أن الإنجيل يعد صحيحاً وأقواله صادقة إلى أن يثبت عكس ذلك بالبرهان ولأن فضل الإنجيل في العالم منذ كتب إلى الآن لا ينكر ولهذا الكتاب مقام سام عند أكثر سكان العالم.

فباعتباره صحيحاً وباعتبار يسوع المسيح صادقاً يقع كل من ينكر طبيعته الإلهية في مشكل عظيم. لأنه بذلك يكون قد أخرج المسيح من رتبة الأنبياء بل من درجة متوسطي الصلاح ووضع في مصف الكاذبين المجدفين المضلين كما فعل به معاصروه من اليهود. وعلى هذا الفرض يكون قد استحق الصلب حسب الشريعة المنزلة على ملته. وهذا قرار ينفر منه كل ذي ذوق سليم مهما تكن ملته. فكوكب طبيعة يسوع المسيح الإلهية هو الذي يضيء أيضاً بنوره الباهر على سائر الكواكب التي سبق ذكرها والتي تأخذ منه معظم نورها.

ومن هذا الكوكب يتدفق نور كماله.

مهما يرتق الإنسان ويتقدم في الصلاح فلا يُعزى إليه الكمال إذ ليس من كامل إلا الله وحده، أما نسبة الكمال الإلهي إلى يسوع المسيح فهي بالنظر إلى طبيعته الإلهية التي تجيز له الانصاف بكمالاتها. ولا

اهتمام يسوع بأن يعرفه الناس كابن الإنسان هو قصده أن يتقرب منهم ليستميل قلوبهم وينال ثقتهم لكي يطلبوه مخلصاً لهم.

فيجب أن نعيد القول بأن يسوع المسيح ابن الله بمعنى روحي صرف لا تشوبه شائبة. ويشترط فيه المحافظة التامة على توحيد الله. ولا يخرج عن هذا الشرط في عقيدته إلا كل غبي. فالمسلم لا يفوق المسيحي المستقيم العاقل تمسكاً بالقول أنه:

«اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» (سورة الإخلاص ١١٢: ٢-٤).

فالذي يستصعب التوفيق بين هذه الأقوال والقول المسيحي «الآب هو الله والابن هو الله والروح القدس هو الله». عليه أن ينتبه إلى ما هو معلوم من اجتماع التوحيد وضده في الشخص الواحد البشري. لأن الإنسان ذو طبيعتين الواحدة جسدية والأخرى روحية. واستقلال كل منهما بعض الاستقلال عن الأخرى أمر ظاهر للنظر الصحيح. فالقول الواحد في الإنسان الواحد قد يصح وقد لا يصح في الوقت الواحد. فيقال مثلاً عن زيد أنه زائل لأنه من التراب وإلى التراب يعود. ويقال عنه أيضاً أنه ذو نفس خالدة ويحيا إلى الأبد. والقولان صادقان. فهل ينفي هذا التناقض بينهما حسب الظاهر الوحيدة الحقيقية في شخص زيد؟

قال داود النبي في المزامير: «باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل حسناته» فهنا لنا ازدواج في قلب التوحيد إذ يظهر الشخص الواحد في الوقت الواحد كمتكلم ومخاطب وكأمر ومأمور. فبمقتضى اللغة والمنطق يظهران اثنين. ولكن بمقتضى الاختبار وحكم العقل السليم هما واحد فقط.

فهذا التشبيه لا نوره كبرهان على أن في الإله الواحد ثلاثة أقانيم الآب والابن والروح القدس. أو أن في المسيح الواحد طبيعة بشرية وطبيعة إلهية بل نوره من باب التذكير إننا نسلم في قضية طبيعة الإنسان المزدوجة بأن هذا الازدواج لا يعارض التوحيد في شخص الخلق. فلم لا يجوز أن يقال مثله في طبيعة يسوع المزدوجة. وفي اجتماع التوحيد وضده في الخالق الذي خلق الإنسان على صورته تعالى كما ورد في التوراة؟

فالوهم الذي يتوهمه بعض المسلمين أن المسيحيين يشركون بالله شخصاً آخر ناتج عن سوء فهم هذه القضية. فتوحيد الله هو الأصل في الدين والتثليث في الله نظير بنوة المسيح لله إنما يؤخذان فقط على صورة لا تخل في التوحيد، لأن الوصية الأولى والأهم بين وصايا الله العشر التي تربط اليهودي والنصراني معا هي:

القمر مثلاً في ليالي الحاقق يمر فوق رؤوسنا بعظمته الكاملة لكنه لا ينير، والشمس لا تفقد من عظمتها شيئاً عندما يحتجب نورها ليلاً. فيسوع المسيح نور العالم في صفاته ومثاله وتعاليمه التي يدور محورها وخلصها على المحبة لله وللقرى حتى للعدو أيضاً. فنور المحبة حتى عن الأعداء الهالكين يصدر من كوكب موت يسوع المسيح الكفاري ثم قيامته. ولا يسك هذا الكوكب بيمينه لإلهو.

## الكوكب السابع: طبيعته الإلهية

الكواكب الستة السابقة الذكر تمهد السبيل للكوكب السابع كما أنها متصلة به أيضاً ولا يمكن فصلها بعضها عن بعض.

إننا نعلم أن معتقد المسيحيين والمسلمين أيضاً أن يسوع المسيح ولد من عذراء ليس حجة ولا برهاناً على طبيعته الإلهية، لكنها النتيجة الطبيعية المستلزمة لتلك الطبيعة. ولا يراد بذلك أنه كان بشراً ثم صار إلهاً. لأن هذا مستحيل والقول به كفر بل أن الذي اتخذ بولادته من عذراء طبيعة بشرية حقيقية كان منذ الأزل ذا طبيعة إلهية حقيقية على صورة لا تمس حقيقة وحدانية الله.

فالقول في لاهوت يسوع المسيح وفي أنه ابن الله قول كبير لا يجوز تصديقه إلا بتقديم الحجج الدامغة والبراهين القاطعة. وبناء على مقام يسوع المسيح السامي وصفاته الكاملة يكون قوله عن نفسه أقوى ما يمكن من البراهين. فهو يصرح أنه ليس فقط ابن الله بل ابن الله الوحيد أيضاً. ولما كان الله روحاً محضاً فبنوة المسيح له بنوة روحية صرفة لا يخامرها أقل إشارة للمعنى الجسدي. فالخذر كل الخذر من اتخاذ هذا اللقب بمعنى مادي يخل بروحانية الله ووحدانيته.

فالعبرة العربية «ابن الله الوحيد» هي في الأصل اليوناني الذي كتب الإنجيل به «ابن الله الوحيد المولود منه». ومنها يستدل على تفرد يسوع المسيح عن كل الذين يسمون أبناء الله. لأن بنوة هؤلاء تأتيهم بالتبني لا بالولادة وكتلاهما بنوة روحية.

وحسب نص الإنجيل يسوع المسيح هو ابن الله بالمعنى التام كما أنه ابن الإنسان بالمعنى التام أيضاً. فاهتمامه بأن يعرف حقاً كابن الإنسان دليل مهم على كونه ليس ابن الإنسان كغيره من الناس. وإلا لم يكن من حاجة إلى أن يكرر كثيراً تسميته نفسه ابن الله. وإن اعترض أحد بأن كلام الإنجيل ليس كلام المسيح ذاته بل كلام تلاميذه فهذا الاعتراض يزيد البرهان قوة. لأنه لا يعقل أن تلاميذه يهتمون ببيان كونه ابن الإنسان أكثر من كونه ابن الله. وسبب

تعارض حصر الكمال في الله. وهو الذي قال فيه الرسول:

«عَظِيمٌ هُوَ سِرُّ الْبَقْوَى: اللَّهُ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ... كُرِّزَ بِهِ بَيْنَ الْأُمَمِ، أَوْ مِنْ بِهِ فِي الْعَالَمِ، رُفِعَ فِي الْجَدِّ» (١ تيموثاوس ٣: ١٦).

فطبيعته الإلهية تتفق اتفاقاً عجيباً مع الكواكب الستة الأخرى. ونزوله من السماء والإعلانات السابقة بمجيئه وسلطانه الفائق وتكريمه بالسجود وحضوره الدائم وموته الكفاري وقيامته تدل بأجمعها على إنسان لا مثيل له بل هو في مقام متفرد أسمى من كل مقام بشري. فكوك الطبيعة الإلهية لا يمسكه يمينه إلا يسوع المسيح وحده.

فما قد اتضح لنا من هذه الكواكب السبعة هو أن أصل يسوع المسيح أصل سماوي قبل خلق العالمين. وأن النبوات القديمة السابقة لمجيئه كثيرة وواضحة ومتواصلة. وأنه ذو سلطان سماوي قولاً وفعلًا. وأنه صار موضوع إكرام وسجود لا يجوز تقديمهما للإنسان المجرد. ولم يعترض على ذلك حال كونه أصلح الصالحين. وأنه صرح بحضوره الدائم مع شعبه وأنه أسلم نفسه للموت ليكفر بموته عن خطايا البشر. ثم قام ممجداً ليتم غاية موته. وأنه بهذه الأدلة وغيرها أعلن طبيعته الإلهية التي تأنس في طبيعة بشرية بولادته من مريم العذراء.

إن نور القمر هو من نور الشمس المنعكس عليه. فمتى طلع القمر مساء يحسب مبشراً بقدوم شمس أمجد منه قد أعارته نورها قبل ظهورها وإنها ستظهر بعده. فالنور اليهودي الذي نشأ عن النور المسيحي المنعكس عليه سلفاً بقي إلى أن بزغ النور الأعظم الذي أنبأ به أولاً. أفلا ينتظر أن يدوم هذا النور المسيحي الأعظم مادام نهار التاريخ البشري موجوداً وهو في العالم على ازدياد مستمر؟

فهذا الماسك يمينه الكواكب السبعة قد عرفناه الآن الزعيم الحقيقي للدين المنزل في العهدين اليهودي والمسيحي فزعامته متصلة منذ البدء ومن زمن آدم إلى هذا اليوم.

لا بد للمفكر أن يسأل نفسه هذه الأسئلة:

(١) ما معنى كون يسوع المسيح هو الوحيد في كل تاريخ العالم إلى الآن الذي جمع في شخصه هذه الشروط السبعة الجوهرية؟

(٢) ألا يستدل من ذلك أن هذا الشخص يبقى منفرداً فيها في مستقبل التاريخ البشري أيضاً؟

(٣) أليس هو المقام من الله منذ الأزل مخلصاً وحيداً لبني آدم الخطاة جميعاً وممثلاً وحيداً كاملاً أمام الناس للإله الروح الذي يرى ولا يرى وفقاً لنصوص الإنجيل؟

هذا ومعاذ الله أن نقصد في شيء من هذه المقالة

وجهاً من الافتخار المذهبي. لكننا نشتهي من صميم القلب أن يتمتع المسلمون أيضاً بالبركات المتدفقة من شخص يسوع المسيح الذي قال بفهم أحد أنبيائه العظام:

«أَيُّهَا الْعَطَاشُ جَمِيعاً هَلُمُّوا إِلَى الْمَاءِ» (إشعياء ٥٥: ١).

وقال هو بفهمه له المجد:

«مَنْ يَشْرِبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيَهُ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الْأَبَدِ، بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيَهُ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعُ مَاءٍ يَنْبُغُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ» (يوحنا ٤: ١٤).

«لَأَنَّ هَذِهِ هِيَ مَشِيئَةُ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنْ كُلَّ مَنْ يَرَى الْآبْنَ وَيُؤْمِنُ بِهِ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أَقِيمُهُ فِي الْزَمَنِ الْأَخِيرِ» (يوحنا ٦: ٤٠).

يتضح جلياً من الإنجيل أن يسوع المسيح لم يؤثر ضم جماعة عديدة إليه يؤلف منهم قوماً خاصاً يتبعه ويسمى باسمه. بل بالعكس كان يردع كثيرين من الذين طلبوا الانضمام إليه. لأن غايته العظمى كانت عامة وموافقة لجميع البشر. وهي نشر النور السماوي المعلن من الله.

ومثل هذا القول يقال عن المسيحيين الذي يتبعون خطوات سيدهم ويسيروا على مثاله، غايتهم العظمى بث هذا النور السماوي كما أعلنه المسيح لا الإكثار من عدد النفوس التابعة لمذهبهم. ولا يُخفى أن من دأب هذه الغاية إثارة النفور والمقاومة حال كون الغاية الأولى يحبذها العقلاء في كل المذاهب متى كانوا مخلصين للحق.

يعتقد المسيحي أن من أهم معاني قول يسوع المسيح: «أنا هو نور العالم» أن تعاليمه الواردة في الإنجيل تصلح وتكفي لإنارة شعوب العالم أجمع على توالي الدهور. لأنها تبدد الأوهام وتجلو الحقائق في موضوع الدين.

ومن جملة هذه الحقائق:

(١) إن كل ما يسمى ديناً ويصور للناس أن مجرد التعبد دون النظر إلى إصلاح القلب وصلاح السيرة يكفل الخلاص والنعيم ليس ديناً صحيحاً بل هو خيال وهمي وضلال بعيد. لأنَّ تعبداً كهذا مبني على الوهم أن الصلاح الخارجي الذي يرضي الناس كاف بينما هو أشبه بحبل بال لا يمكن أن ينشل من الهلاك غريقاً. أو بوعاء فارغ لا يعي خيراً للإرواء أو الإشباع. ولأنه فارغ تعشش فيه الحشرات السامة المهلكة. فهو قبيح وعدمه خير من وجوده. فهذا النوع من التعبد المؤسس على الرياء هو أفح الذنوب.

(٢) إن كل ما يسمى ديناً ويصور للناس أن قيامهم

بالفروض والرسوم الدينية على شروطها المذهبية امتثالاً لوصايا رؤسائهم ومجامعهم بقطع النظر عن الوصايا الإلهية مقبول عند الله هو دين واهن. لا بل يحقر الدين فلا يستحق هذا الاسم الشريف. لأن ليس للرؤساء ولا للمجامع حق الإحداث أو التشريع في الدين. ولا يرضي الله إلا من حفظ تلك الفروض والرسوم امتثالاً لأمره تعالى لا للناس. وخلاف ذلك لا يشرف باسم الدين لأنه من باب الغباوة والخذاع.

(٣) إن الدين الصحيح النافع هو الذي جعل صاحبه يمارس فروض الدين مخافة لله وحباً وإطاعة له لا للبشر. ويجعل تعبدته نتيجة الشعور العميق الداخلي بمراحم الله وجوده. والتلذذ بالتأمل في صفاته عز وجل. والرغبة في تمجيده. والاتضاع في حضرته مع الاعتراف له تعالى. فيلتزم صلاح السيرة بجانب هذه الشعائر لا ليربح الثناء البشري أو النفوذ بين قومه أو النجاح في أشغاله. ولا خوفاً من الجحيم ولا طمعاً في النعيم. لأن مقاصد كهذه هي من حب الذات الذميمة الذي يقيم الذات معبوداً بدلاً من الله فلا يكون صاحبه من الأتقياء.

(٤) إن قوام الدين الصحيح هو ما يهبه الله للإنسان وليس أعمال الإنسان. أي أن الأهم في الدين هو ما يقدمه الله للإنسان حباً له. وما يقدمه الإنسان إرضاء له تعالى هو الأمر الثانوي أو نتيجة الشعور الشريف بالأمر الأول.

وإيضاحاً لذلك نقول أن كرم الملك العظيم نحو بنيه أو نحو عبده هو موضوع للاهتمام والافتخار والإشهار أكثر كثيراً من خدمة أولئك البنين لأبائهم أو العبيد لمولايهم. ويزيد في هذا الترجيح تفوق ذلك الكرم على تلك الخدمة أضعاف الأضعاف... فالأمين والشريف النفس من عبيد الله أو بنيه يجاهر قليلاً بخدمته لله أو للناس وكثيراً بإحسان ذلك المنعم الجواد الذي فوق إحسانه الروحي إحسانه الزمني بمقدار ما تفوق النفس الخالدة الجسد الفاني.

لذلك يكثر الإنجيل من ذكر هبات الله الروحية كما في الآية الشهيرة:

«لِأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ» (يوحنا ٣: ١٦).

فالرحمة والمغفرة والنعمة والسلام والنشاط الروحي في مقاومة التجارب مع ما يتبع هذه العطايا من أمثالها هي أركان الدين الصحيحة. والتفكير ملياً بهذه الهبات الفائقة يولد المحبة البنوية لله التي تجعل

الإنسان يفضل الآلام مع رضاه تعالى على ملء الرفاهية مع غيظه عز وجل.

وقد جعل الإيمان أساس الخلاص وشرطه. لأن الإيمان هو القبول الشخصي الحبي لهذه المنح الإلهية الفائقة مع الثقة التامة والتمسك بها. والأمر واضح أن إيماناً كهذا يكون كشجرة حية وثمرية. وأن ثمره يرى في السيرة الصالحة الناشئة عنه. ولا يكون الإيمان حياً حقيقياً إن لم يأت بهذا الثمر الجوهري. ولا تكون الأعمال الصالحة حقاً ما لم تكن ثمر هذا الإيمان. وهذا هو تعليل الموضوع الرئيسي. هل الخلاص مؤسس على الإيمان أم على الأعمال؟ وحول هذا الموضوع تدور المشاحنات والأضاليل والإرشادات جيلاً بعد جيل.

والأعمال الصالحة إنما تكتسب صفة الصلاح من فائدها لغير الذي يمارسها. ولا يعد نقيماً من تغافل عن المطالبات الدينية التي يستفيد منها غيره نظير الصدق واللطف والحلم والصبر والتسامح والتعاون والسخاء إلى غير هذه من أمثالها. ولا يحصل هذا المتغافل على بغيته خلاص النفس ولو بالغ في ممارسته فرائض التعب.

فلو اتفقت فرق أهل الكتاب على اعتبار هذه التعاليم الواردة في الإنجيل صحيحة وصالحة للجميع واتخذتها قواعد يعمل بها لزال الانقسام القديم والتعصب الذميمة والكراهة اللئيم وساد الوفاق والوئام والمحبة والسلام.

والله حسبنا لأجل الحصول على هذه النتيجة المجيدة المباركة وهو نعم الوكيل له المجد إلى دهر الدهور. آمين.

### مسابقة كتاب: «نور العالم»

أيها القارئ العزيز،

بعد تعمّقك في هذا الكتاب وإطلاعك على مواضيعه نقدم إليك ملخصاً له في إطار الأسئلة التالية لتختبر بها معلوماتك. ونحن بانتظار رسالتك تحمل إلينا أجوبتك على الأسئلة لنرسل إليك أحد كتبنا كجائزة.

- ١ - هل يتفق المسيحيون واليهود والمسلمون على توحيد الله؟
- ٢ - برهن بآيات من الكتاب المقدس والقرآن على مقام المسيح الفريد.
- ٣ - لمن تعود المذمة الواردة في بعض الآيات في القرآن؟
- ٤ - قال المسيح: إن الناموس كله والأنبياء مُتَضَمَّنٌ في وصيّتين. ما هما؟
- ٥ - ما هو بيت القصيد في الدعوة المسيحية؟
- ٦ - كيف يستطيع المدقق العادل الوصول إلى الحقيقة المثبتة في الوحي الإلهي؟
- ٧ - ما هي النصوص القرآنية التي تدحض القول بأن القرآن قد حلّ محل التوراة والإنجيل؟

- ٨ - هل نسخ الإنجيل التوراة أم هو متمم لها؟
  - ٩ - اذكر بعض الحجج التي تؤيد صحة التوراة والإنجيل؟
  - ١٠ - أين ومتى ورد قول يسوع المسيح: «أنا هو نور العالم»؟
  - ١١ - مَنْ هو المخلص الوحيد المُعَيَّن من الله لنجاة البشر من الخطية والهلاك؟
  - ١٢ - إلى ماذا يرمز قوس الفرح؟
  - ١٣ - ما هي السجايا التي ينفرد بها يسوع المسيح؟
  - ١٤ - لماذا أغضب المسيح رؤساء اليهود بقوله للمفلوج: «يا بُنَيَّ مغفورة لك خطاياك»؟
  - ١٥ - ذكر المؤلف سبعة كواكب كرمز لحقوق يسوع المسيح الإلهية. اذكرها مع معاني رموزها باختصار.
  - ١٦ - ما الفرق بين قولنا: «يسوع المسيح ابن الله» وقولنا عن الآخرين: «أبناء الله»؟
  - ١٧ - لماذا كل من ينكر طبيعة المسيح الإلهية يضع نفسه في مشكلٍ عظيم؟
  - ١٨ - ماذا كانت غاية يسوع المسيح العظمى؟
  - ١٩ - ما هي أركان الدين الصحيح؟
  - ٢٠ - كيف تكتسب الأعمال الصالحة صفة الصلاح وهل هي كافية لخلاص الإنسان؟
- أرسل لنا إجاباتك على هذه المسابقة مع عنوانك الكامل والواضح على العنوان التالي:

**دار الهداية The Good Way P.O.BOX 66 CH-8486 Rikon Switzerland**

سورة البقرة	
٤. . . . .	١١٣:٢
٣. . . . .	٢٥٣:٢
٦. . . . .	٤١٠:٢ و ٤١١
٦. . . . .	٩١:٢
سورة آل عمران	
٦. . . . .	٤ و ٣:٣
٣. . . . .	٤٥:٣
٦. . . . .	٥٠:٣
٤. . . . .	٥٥:٣
٦. . . . .	٦٥:٣
٦. . . . .	٨١:٣
٦. . . . .	٩٣:٣
سورة النساء	
٦. . . . .	١٣٦:٤
٦. . . . .	١٦٢:٤
٤-٣. . . . .	١٧١:٤
٦. . . . .	٤٧:٤
٦. . . . .	٦٠:٤
سورة المائدة	
٦, ٣. . . . .	١١٠:٥
٤. . . . .	١١٦:٥
٦. . . . .	٤٣:٥
٦. . . . .	٤٤:٥
٦. . . . .	٤٦:٥
٦. . . . .	٤٧:٥
٦. . . . .	٤٨:٥
٦. . . . .	٦٥:٥ و ٦٦
٦. . . . .	٦٨:٥
٤. . . . .	٧٣:٥
٤. . . . .	٨٢:٥
سورة الأعراف	
٦. . . . .	١٥٧:٧
سورة التوبة	
٦. . . . .	١١١:٩
٤. . . . .	٣١:٩
سورة يونس	
٦. . . . .	٣٧:١٠
سورة مريم	
٣. . . . .	٣٤:١٩
سورة الأنبياء	
٤. . . . .	٧:٢١
سورة القصص	
٦. . . . .	٤٩:٢٨
سورة سبأ	
٦. . . . .	٣١:٣٤
سورة فاطر	
٧. . . . .	٤٣:٣٥
سورة الزخرف	
٥. . . . .	٢٤-٢٢:٣
سورة الفتح	
٧. . . . .	١٥:٤٨
٦. . . . .	٢٩:٤٨
سورة الحديد	
٦, ٤-٣. . . . .	٢٧:٥٧
سورة الجمعة	
٦. . . . .	٥:٦٢
سورة الإخلاص	
١٢. . . . .	٤-٢:١١٢



## سواهد الكتاب المقدس

١٣ . . . . . ١٤:٤	١٠ . . . . . ٧:٢	خروج	١٢ . . . . . ٣-٢:٢٠
١٠ . . . . . ٢٣ و ٢٢:٥	لوقا	مزامير	٥ . . . . . ٣٠:١١٩
١٣ . . . . . ٤٠:٦	١١ . . . . . ٣٨:١٩	أمثال	٥ . . . . . ٢٣:٢٣
٩ . . . . . ٤١:٦	٥٠ . . . . . ٣٤:٢٣	إشعياء	١١ . . . . . ١٠ و ٧:٥٣
١٦ . . . . . ١٢:٨	يوحنا	متى	١٣ . . . . . ١:٥٥
٩ . . . . . ١٤:٨	١٠ . . . . . ٤٣:١١	١١ . . . . . ٢٨:١١	٣٠ . . . . . ٧ و ٦:٩
٩ . . . . . ٢٣:٨	١٠ . . . . . ٦:١٤	١١ . . . . . ٢٨:٢٠	
٩ . . . . . ٥٨:٨	١١ . . . . . ٣٠ و ٢٩:١٦	١٠ . . . . . ١٨:٢٨	
رومية	٩ . . . . . ٥:١٧	٧٠ . . . . . ١٧:٥	
٤ . . . . . ٢:١٠ و ٣	١١ . . . . . ٣٣:١٨	٩ . . . . . ٢٤-٢٢:٥ و ٣٧-٢٨	
أفسس	١١ . . . . . ٣٦:١٨	٥٠ . . . . . ٤٥ و ٤٤ و ٣٩:٥	
٣ . . . . . ٢٢-٢٠:١	٩ . . . . . ٣٧:١٨	٩٠ . . . . . ٤٨:٥	
فيلبي	١١ . . . . . ١٩:١٩	١٠ . . . . . ٢٨:٧ و ٢٩	
٣ . . . . . ١١ و ١٠:٢	٩ . . . . . ١٤ و ١:١	١١ . . . . . ٤:٩	
١ تيموثاوس	٣٠ . . . . . ٤-١:١	مرقس	
١٣ . . . . . ١٦:٣	٣٠ . . . . . ١٤:١	١٠ . . . . . ١٠:٢	
عبرانيين	٩ . . . . . ١٨:١		
١٠ . . . . . ١٤:١٢	٣٠ . . . . . ٩:١		
رؤيا	١١ . . . . . ٢٨:٢٠		
٩ . . . . . ١٦-١٠:١	١١ . . . . . ١٧:٢١		
	١١ . . . . . ٢٤:٢ و ٢٥		
	١١ . . . . . ١٤:٣ و ١٥		
	١٣ . . . . . ١٦:٣		